# عاشق السراب

## وقتك يتناقص

د. داليا الكومي

دريم بن
للترجمة والنشر والتوزيع والطباعة

**دار دريم بن للطباعة والنشر**
**العنوان: مدينة العبور – الحي السادس، فيلا 8، مدخل 1**
**هاتف: 1003288596 (0020)**
**بريد إلكتروني: dream.pen92@gmail.com**

---

# عاشق السراب – وقتك يتناقص

---

**د. داليا الكومي**
**الطبعة الأولى، القاهرة 2020**
**تدقيق لغوي: شيماء حسام الدين**
**تنسيق وإخراج داخلي: لخضر بن الزهرة**
**غلاف: إسلام مجاهد**
**رقم الإيداع: 20315 / 2020**
**I.S.B.N | 978-977-6794-49-8**

---

جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة للدار، ولا يحق لأي شخص أو مؤسسة أو جهة إعادة إصدار هذا الكتاب، أو جزء منه، أو نقله بأي شكل من الأشكال، أو وسيلة من وسائل نقل المعلومات، ولا يجوز تداوله إلكترونيًّا نسخًا أو تسجيلًا أو تخزينًا، دون إذنٍ خطيٍّ من الدار.

جميع الآراء الواردة في هذا الكتاب تعبّر عن رأي كاتبها، و لا تعبّر بالضرورة عن رأي دار النشر.

د. داليا الكومي

# عاشق السراب

## وقتك يتناقص

(رواية)

دريم بن
للترجمة والنشر والتوزيع والطباعة

# إهداء من القلب..

**المشوار المستحيل يكون ممكنًا بالكثير من الدعم ومن الحب من كل المحيطين ممن يهمهم أمري حقًا.. من أم ومن زوج ومن أبناء ومن أصدقاء.. لكن الأهم حقًا حينما يكون كل الدعم من رفيق الروح حينها يحدث الفرق.. فشكرًا لك فبدعمك أصبحت ما أنا عليه الآن..**

**داليا الكومي**

**الزمان..: الثلاثون من أبريل لعام ألفين وتسعة عشر**
**المكان..: سجن الرجال**

**بعد تفكير عميق قررت أنا ياسر ممدوح ربيع أن أبدأ اليوم بكتابة مذكراتي.....**

**أنا أعلم جيدًا أنها ستفتح علي دربًا من دروب الجحيم فأنا اعتزلت الطب النفسي وسأكتب كل الحقائق المفزعة التي علمتها عن الحيتان.. كانوا يخبروني بكل آثامهم وخطاياهم أثناء لحظات اعترافهم أمامي.. وما سأكتبه لن يندرج الآن تحت طائلة إفشاء أسرار العميل وفي النهاية أنا لن أكتب الأسماء الحقيقية للأشخاص لكن بالتأكيد كل شخص سيعلم نفسه جيدًا... وربما يقرر أحدهم إسكاتي والتخلص مني فيكون يخدمني دون أن يعلم ويكون وهبني سكة الخلاص....**

**يظل الإنسان يؤجل توبته واستقامته ظنًا منه أنه لديه كل الوقت ليفعل لاحقًا ولكن بعض الناس لا يمهلهم القدر الوقت لذلك...**

**إذا نويت التوبة فنفذ فورًا فلربما غدًا تستيقظ وبجوارك جثة هامدة تلون بدمائها ثيابك وجريمة تحمل إمضائك...**

# 1 | الهاجس

الأمطار الغزيرة التي تضرب نافذته بقوة أرسلت قشعريرة على طوال جسده... لا يدري لماذا اليوم بالخصوص يشعر بانقباض في قلبه وكأن أمرًا ما سيئًا سيحدث... حدسه اللعين ذاك أفسد كامل يومه وجعله يعتذر عن جميع مواعيد مرضاه لليوم وجلس فقط يتأمل الأمطار.. هل للمطر علاقة بمزاجه المتقلب ذاك؟

الشتاء هذا العام قارص والبرودة أتت سريعًا وديسمبر الغاضب يفصح عن غضبه وزعابيبه بدون أي مواربة أو استحياء... أمامه شتاءٌ طويل فإن كانت تلك بدايته فقط فكيف سيكون منتصفه؟

هو يعلم أنه أخطأ باعتذاره للمرضى فهم في أمس الحاجة إليه ويدفعون أموالًا طائلة من أجل راحتهم لكنه مضطر.. لن يفيدهم إذا لم يستطع مساعدة نفسه.. هو شخصيًا بحاجة الآن إلى طبيب نفسي وإلا سيجن... اليوم الكئيب لا يمر والفراغ الذي تركه مرضاه أثقل يومه.. فقط ساعتان قضاهما بدون مرضى ولكنهما كانا وكأنهما أيامًا وأيامًا... ربما كوب من الشكولاتة الساخنة يدفئه ويرفع مستوى السيرتونين لديه، فهو قد اكتفى من شرب القهوة اليوم وتخطى جرعة العشرة فناجين السامة من الكافيين الخالص وحتى إن طلب من مرزوق التمرجي الخاص به إعداد المزيد من القهوة فلن يستمع إليه...

في بعض الأحيان مرزوق هو من له الكلمة العليا في إدارة حياته لكنه لا يستطيع الاستغناء عنه فهو من يحميه من هجمات المرضي العنيفين ويدير كل فوضى حياته...

عيادته النفسية أصبحت من أشهر العيادات في الفترة الأخيرة واختياره لها في مجمع سكني راقٍ كان له المردود الذي توقعه مع نوعية مرضاه الجدد ذوي رأس المال الضخم ورصيد البنك الذي يتجاوز السبعة أصفار لكنه من أجل تحقيق حلمه والوصول إلى هذا المكان اضطر إلى رشوة ضميره فهل كان الأمر يستحق الليالي الطويلة من الأرق يعقبها سلسلة الكوابيس التي نغصت عليه عيشته والآن كره حتى عيادته الأنيقة التي في سبيلها تنازل عن أهم مبادئه وأفشى سر العميل...

حتى الحشيش الجيد عجز عن جعله ينسى ويرشي ضميره الذي يمنعه من الاستمتاع بما ظن أنه منتهى أمله في الحياة..

من يأخذ ما لديه ويعطيه راحة البال؟

ووقعت عيناه على الإعلان الذي وضعه في كل الجرائد المحلية..

«عيادة السراب طريقك للسحاب.. نحن نعيد الأمل ونرمم شقوق النفس لمن يريد الكلام بحرية السراب يستمع إليك في سرية.. فقط بموعد واحد أسبوعيًا.. ستشعر بالاختلاف وستطير معنا في الفضاء على شاطئ السراب..»

– مشروب الشكولاتة الساخن سيدي...

– أشكرك من كل قلبي مرزوق... لماذا تتحملني حتى الآن؟ أنا حتى لا أحتمل نفسي...

– إنه القدر سيدي ليس لدي أي اختيار... ثم أنت لست بهذا السوء.. اشرب الشكولاتة وهي مازالت ساخنة لتدفئك وتحسن من مزاجك... لا يجوز أن تعتذر لمرضاك مجددًا... هم في أمس الحاجة إليك...ثم سمعة عيادة السراب ستتعرض للخطر لو اعتذرت مجددًا...

– معك حق مرزوق.. لا أدري ماذا حل بي اليوم لكنى أشعر بالتشاؤم منذ الصباح لدي هاجس يسيطر علي... أشعر أن شيئًا سيئًا سيحدث اليوم... ارحل مرزوق... عد إلى منزلك لا يوجد مرضى ولا حاجة لبقائك...

– استعذ بالله من شيطانك الذي يوسوس لك بالسوء... ربما فقط أنت بحاجة إلى إعادة صلتك مع الله.. أنت قطعتها معه منذ زمن، ربما هذه رسائل خفية إليك لتعيد التفكير.. أحيانًا يحب الرب عبده فيعيده إليه..

لست بهذا السوء.. حقًا؟ أنت لا تعرف الحقيقة.. لا تعرف ماذا فعلت لتقول هذا ولا أجرؤ على الاعتراف.. كان حقًا على وشك البكاء.. وهتف بألم..

– لا مرزوق هناك أشياء بشعة لا تعرفها عني.. أشياء تمنعني من وصل صلتي بالله فذنبي عظيم.. أنا أسوء مما تتخيل بمراحل.. الذنوب الخفية أثقل إثمًا وأصعب توبةً..

– طالما تعرفها كفر عنها والبذرة الطيبة مازالت بك وأنا أشهد على هذا.. وبيدك أن تغذيها فتصبح بستانًا أو تقتلها فتجف روحك ويشوى لحمك.. ولندع الله أن تكون طريقة إعادتك إليه هي الطريقة السهلة فهناك طرقًا لا تستحقها لكن لا أحد يعلم مصيره ولا ماذا يخبئ له

الغد.. أنا منتظر في الخارج لن أتركك بمفردك على الرغم من عدم وجود المرضى..

تأنيب ضميره على أشده اليوم... ماذا أيقظك أيها النائم منذ زمن؟

عد إلى سباتك الطويل واتركني لراحة بالي...

«لا حشيش في العمل»

لم يلجأ مطلقًا إلى تدخين سجائر الحشيش في عيادته الراقية أو حتى في عيادته الشعبية في الماضي.. لكن حالته المتردية اليوم تجعله يغير كل قواعده التي وضعها لنفسه وفي النهاية سيجارة واحدة فقط لن تكون كارثية بالكامل وأيضًا حشيشه من (النوع الفاخر) ...

ومرزوق لن يعرف وربما يدعوه لمشاركته إذا ما اكتشفه وهو يدخنها لتكون جلسة مزاج ثنائية...

اعتاد على هلاوسه البصرية مع سجائره الملغمة.. في العادة سيجارة واحدة فقط لا تؤثر على دماغ عتيقة مثل دماغه... مع كل نفس يلف عقله كان يرى أشباحه تتجسد أمامه وهلاوسه تؤنس وحدته... وليرى هلاوسه واضحة أمام عينيه كان يدخن العشرات لذلك دهش من السرعة التي ظهرت بها الهلاوس هذه المرة..

ولكن هلاوسه اليوم كانت مختلفة جدًا كانت أنثوية وجريئة بل ووقحة لدرجة الإغراء... هلاوسه المميزة هذه المرة تجسدت في سيدة شقراء رائعة الجمال شعرها الطويل الناعم يصل إلى منتصف خصرها وترتدي معطفًا أسود اللون من الفرو الأصلي... يا لا حظه ذلك الحيوان المحظوظ الذي يقترب منها بتلك الدرجة كجلدٍ ثاني لها..

لن يقاوم اليوم هلاوسه.. لماذا يقاومها وهي بذلك الكمال... فليستمتع بها وهي تخلع عنها معطفها وتلقيه برقة على الأريكة المخملية بنية اللون في آخر المكتب لتظهر فستانها الأحمر القصير الذي ارتفع إلى منتصف فخذيها عندما جلست على المقعد المقابل له وهي تضع إحدى ساقيها المثيرتين فوق الأخرى برشاقة كاشفة عن جواربها السوداء الشفافة التي تظهر أكثر مما تغطي وتثير الشهوة أكثر من منظر الجلد العاري نفسه.. تعطيه مساحة للتخيل وتعطيه الحافز لخلع تلك الجوارب عنها بنفسه.. فستانها المثير كان دعوة صريحة للخطيئة وكأنها تعمدت إلقاء معطفها لأبعد مكان تصل إليه يدها ليعلم منذ اللحظة الأولى أنها ستكون أفروديت إله الخطيئة والشهوة والجمال وليست إله الحب الرومانسي البريء... تتبع بنظراته ساقيها حتى وصل إلى حذائها.. هل من المعقول أن يثار بحذاء؟ حذائها ذو الكعب العالي كان يعذبه ليصل حد الجنون.. مقولة قرأها سابقًا احتلت تفكيره.. صدقت يا شاعرنا..

«كم أحب الحذاء العالي، لأنّه يشدّ الساقين في كلية الأنوثة المتأهبة للاندلاع. والحذاء العالي يختصر البطن، ويفتح انحناءة لبطن ينكمش من عطش. والحذاء العالي يدفع النهدين ليتكورا ويشرئبا على المارة المحرومين. والحذاء العالي يصبّ القدمين في أهبة الرقص فوق الدخان المتصاعد من رغبة محروقة. دقّي بلاط الشارع بنفور غزال، لا تقلقه ذراعان أو كلمات»

(محمود درويش).. من كتاب (ذاكرة للنسيان).

هلاوسه الفاتنة نظرت إليه بإغراء وهي تقول...

– عذرًا لتطفلي دكتور ياسر ولكني أريد مقابلتك بصورة ملحة....

جملتها المغرية أزالت أثر الحشيش من دماغه لينتبه أن محدثته

من لحم ودم وتتحدث بإغراء يغوي حتى القديس بصوتها المخملي ونظرتها النارية المتفجرة بالأنوثة... والحمد لله أنها ليست هلاوس إذًا هو يستطيع اللمس والإحساس بمتعة هذا اللمس وبإثارته لكل أعضائه..

ثم يعود إليه انتباهه الكامل على صوت مرزوق وهو يزمجر غاضبًا...

– لم أستطع منعها من مقابلتك دكتور...

أراد الصراخ.. «لم تستطع منعها أيها العجوز الخبيث أم لم تريد..»

إنها متعة للنظر.. وسكر حتى الثمالة بدون خمور... من الأحمق الذي سوف يرفض تلك المتعة...

يبدو أنها مريضة تريد التحدث إليه والفضفضة.... هذا المرض الأحمق عديم النظر كيف يتجرأ ويصيب تلك الرائعة؟ هو أيضًا لن يكون بمثل تلك القسوة ويرفض مقابلتها... وخصوصًا ودموعها تبلل أهدابها الطويلة الملتفة حول زوج من العيون الزيتونية القاتلة التي كانت تلمع هي الأخرى وعلى وشك البكاء...

مد يده إليها في حركة مكشوفة للسلام... أراد أن يلمسها ليتحقق بنفسه من وجودها... من حقيقة تواجدها التي أكدها مرزوق وأيضًا ليشعر بدفء كفها البض في يده... ويمتع نفسه بملمس جلدها وبنعومته..

مال بجذعه على مكتبه ليقترب منها لأقصى مدى يستطيع الوصول فيه إلى جسدها الممشوق المثير.. الشقراء كانت تجلس بشموخ وتمد يدها إليه دون أن تحرك ساكنًا لتجبره على الانحناء أمامها منذ

اللحظة الأولى وهو لم يقصر أبدًا، فدار حول المكتب بالكامل وانحنى من فوره كالمسحور يتطلع في عينيها قابلًا بكل شروطها للعبودية ووجد نفسه يقول..

– سأفعل كل ما تريدين لكن رجاءً لا أريد أن أرى تلك الدموع في عينيكِ مجددًا... وكأن كلمته الشرارة التي استفزتها فتحول لمعان الدموع إلى أمطار غزيرة من القطرات الحارة التي غطت وجهها الجميل... تأكد من أن أهدابها الطويلة بغباء طبيعية فلو كانت تضع الماسكرا لكان وجهها تحول ليصبح وجه الباندا لكن دموعها فقط غسلت القليل من حمرة وجنتيها لتتركها بيضاء شاحبة... هو خبير في ذلك، لطالما أبكى النساء وشاهد انهيارهن بنفسه عندما يتركهن... هو لم يخدعهن أبدًا بل هن من خدعن أنفسهن... كن جميعًا يعلمن أنه غير جاد ويتسلى فقط بأجسادهن... لكن الأمل الخفي الذي كان يراود كل واحدة منهن ويجعلها تتمنى أن تكون هي المختلفة والتي سوف توقعه في حبائلها وأمل فوزها بعريس لقطة حسب المتعارف عليه كان يتحطم مع كلمة النهاية التي كان يلقيها في وجههن... كان يعلم نهايته جيدًا فهو يومًا ما سوف يقع في براثن إحداهن فهو يستحق.. على الرغم من قناعاته الداخلية كرجل شرقي بضرورة زواجه من عذراء..

لكنه كان يعلم جيدًا أن عروسه لن تكون كذلك فهو لا يستحق عذراء حقيقية بل ربما سوف تمثل العروس دور العذراء الخجول وهو سيتقبل ذلك ويرغم نفسه على التصديق.. والأسوء أن تكون بريئة فعلًا فيحطمها معه بقذارته فهو لن يكتفي يومًا بامرأة واحدة.... طالما اعتاد على رؤية دموع النساء لكن دموع تلك الجميلة كانت دموع برية جميلة صادقة جدًا أو كاذبة جدًا لكنها أقنعته... سلبت لبه بالكامل.. وعطرها القوي الذي يذكره برائحة أشجار المانجو المثمرة في الشتاء

القاحط قضى على الباقي من تعقله فدار حول مكتبه وتناول محرمة من على طاولة القهوة الصغيرة وجفف دموعها بنفسه...

– سيدتي رجاءً لا تبكي.. أنا هنا لأسمعك... (أوه العطر يجعله مسحورًا بالكامل).

لا شيء في شريعتنا سن بلا سبب.. عطر الأنثى حقًا بوابة الزنا لا محالة خاصة حينما يكون مثل عطرها وعلى جسد مثل جسدها الفاتن والشيطان ثالثهما..

رفعت إليه وجهها الذي أشرق بالأمل...

– هل حقًا ستفعل؟ أنا علمت من عم مرزوق إنك لن تستقبل أحدًا اليوم وخصوصًا أنا ليس لدي موعد...

الثعلب العجوز جلس يحاورها... وتقول بكل رقة (عم مرزوق) كيف يستطيع بعد أن سحرته منعها من مقابلته؟ بالطبع فلتذهب تعليماته إلى الجحيم أمام نبرة صوتها الملائكية...

– صحيح أنا ألغيت مواعيدي لكن أنتِ... أنتِ (حالة طارئة).. تنفست بارتياح وهي تغلق عينيها.. هو أكيدٌ أيضًا من أنها لا ترتدي العدسات اللاصقة.. لا يمكن لشركة أن تصنع مثل ذلك اللون الخلاب، إنه فقط من صنع الخالق عز وجل...

انتظر بصبر أن تعيد فتح عينيها.. أرجوكِ اسرعي بكشفهما أريد أن أراهما صافيتين خاليتين من الدموع...

– شكرًا لك... نبرتها جمعت زقزقة كل عصافير حيه والأحياء المجاورة وكل شذى الزهور الفواحة...

عاد ليجلس خلف مكتبه... وبخفة ضغط زر جرس استدعاء مرزوق المخفي... دائمًا كان هذا الزر ينجده عندما يستشعر الخطر وهو يجلس بمفرده مع أحد زبائنه فيعلم مرزوق أنه يحتاجه والآن هو أيضًا يحتاج إلى مرزوق لتهدئة ثورة مشاعره الرجراجة وأعصابها المنهارة...

– أعتقد أن الليمونادة المثلجة ستهدئ أعصابكِ... مرزوق من أفضل صانعيها في العالم... أنا أعطيته الأيزو... ابتسمت مظهرةً صفًا من الأسنان اللؤلؤية البيضاء... هنا زمجر باعتراض.. «لا هذا يكفي».. هذه لا يمكن أن تكون طبيعية ليس للونها ناصع البياض فقط ولكن لتناسق أحجامها وأشكالها... كل شيء بها صحيح تمامًا وكأنها خرجت من كتالوج ولدرجة تجعله يشك في حقيقتها وفي كونها من لحم ودم مثل البشر العاديين..

– إذًا فليكن لي شرف تجربتها...

كتم بصعوبة كلمات أصرت على الخروج... «هي من لها شرف لمس شفتيكِ» وقال بدلًا من ذلك...

– مرزوق... الليمونادة المثلجة للسيدة... وقهوة شديدة السواد لي... بالتأكيد هو يحتاج إلى جرعة مكثفة من القهوة لتعادل جرعة الحشيش التي سطلته... ولكن مرزوق نظر إليه بتهديد جعله يتراجع...

– حسنًا مرزوق سأكتفي بالشاي... لكن اجعله ثقيل... شاي صعيدي أصلي... مرزوق يبتسم الآن إذًا سوف يسمح له بشرب الشاي...

انتبه إلى أنه لم يسألها حتى عن اسمها... إن كانت ستكون مريضته ينبغي عليه أن يحجم أفكاره الخبيثة ويتعامل معها رسميًا... لا مانع

مطلقًا من اختلاس بضع نظرات لجمالها الفتان المهلك ولكن هذا سيكون كل ما سيتحصل عليه.... أخلاق المهنة تمنعه من التمادي معها... لكن هل لديه أخلاق مهنة حقًا؟ ماضيه يعود حيًا الآن ليذكره بفعلته وبأخلاقه المزعومة..

وهي استنتجت سؤاله القادم.. لم تعطيه الفرصة ليسألها عن اسمها... قالت بغموض...

– تستطيع دعوتي سراب.. وهو كان يظن أنه تنبه بالكامل لكن يبدو أن الحشيش هذه المرة بالفعل جيدًا جدًا... طبعًا فحشيش «قرين الشيطان الأفضل على الإطلاق»..

تلك المهرة رائعة الجمال والمثيرة حد الجنون لدرجة تستفز كل رجولته لدرجة الألم لا يمكن إلا أن تكون سرابًا..

خيبة الأمل جعلته يغمغم بإحباط...

– سراب؟

– نعم سراب أليس هذا شعار عيادتك؟ الهلاوس العادية لا تستطيع إدارة حوار كهذا، لكنه لم يعد يميز بين الحقيقة والخيال...

لكن مرزوق يراها أيضًا على الرغم من أنه لم يشاركه مزاجه الاستثنائي بل ويحدثها هو الآخر وسمعه يقول ببساطة...

– دقائق وسأعود سيدتي...

انحنت أرضًا لتلتقط حقيبتها الجلدية الفخمة السوداء التي كانت ترتاح قرب قدميها... فتحتها وأخرجت منها جريدة يومية... أشارت إلى إعلانه فيها قائلة بغموض..

– عيادة السراب؟ إعلانك يقول الحديث بحرية وبسرية... لذلك اعتبرني كالسراب أظهر وقتما أريد وأختفي وقت الجد... أنت اخترت الاسم بنفسك لماذا العجب؟

هو يعلم كم أن خصوصية المريض أمرًا مقدسًا بل وبالأخص المريض النفسي الذي يمتلئ ملفه بالألغام لكنه كان يعلم جيدًا هوية كل مرضاه... لأول مرة يتعامل مع مريض يخفي عنه هويته الحقيقية... أشار بيده إلى الخزانة التي تحتل الجدار خلفه...

– سيدتي... هنا توجد ملفات عملائي جميعًا... اطمئني السرية هنا مطلقة... والخزانة لا تفتح إلا برقم سري لا يعلمه سواي...

راقبت باهتمام صف الملفات السوداء التي تظهر واضحة من خلال زجاج الخزانة.. نهضت وتناولت معطفها وحقيبتها في إشارة تدل على استعدادها التام للمغادرة فورًا... قالت بصرامة...

– إليك شروطي... أنا فقط أحتاج إلى الكلام.. إلى الفضفضة.. أنت لن تجد حلًا أبدًا لمعضلتي لأنه لا يوجد لها حل... لكن إن لم أتحدث لأحدهم سأجن رسميًا... ستكون مستمعًا جيدًا بدون الكثير من الأسئلة التي لن تفيدني وفقط ترضي فضولك وتكتفي بتسميتي سراب سنتفق أو سأذهب فورًا... أنا لن أكون ملفًا آخرًا يضاف إلى رصيدك... وحالة تسجلها في بحث علمي تضيفه إلى قائمة فتوحاتك... إنها تملي عليه الشروط وتجبره على القبول بها كما أجبرته على الركوع تحت قدميها منذ اللحظة الأولى للقائهما وهو ركع وقتها.. والآن إما أن يذعن أو يتركها ترحل ويحرم نفسه من مجرد رؤيتها...

– حسنًا سراب اجلسي اتفقنا...

هل هي ضحكة انتصار أم سعادة؟ لم يهتم كثيرًا لمغزى الضحكة فلماذا سيضيع وقتًا في التفكير طالما معطفها عاد إلى مكانه وفستانها الوقح مازال يثيره بجنون...

ودخول مرزوق حاملًا العصير جعله يتجاوز أفكاره المتشككة...

– مرزوق... السيدة سراب عميلتنا من اليوم...

ابتسم بأدب وهو يوجه كلامه إليها..

– أحسنتِ الاختيار سيدتي... دكتور ياسر هو الأفضل بلا منازع... لتجيبه برقة حزينة سببت لهما المغص معًا...

– أعلم مرزوق ولذلك أنا هنا.. ذلك العجوز المتطفل لن يرحل.. سيلازم تلك السراب أم ماذا؟

– مرزوق من فضلك اغلق الباب خلفك... ولا تحول لي أي مكالمات أو رسائل.. انسحاب مرزوق على مضض جعله يريد الضحك بصوت عالٍ لكنه تمالك نفسه... لماذا يشعر بالارتباك أمامها وكأنه يعاين حالته الأولى؟

كان يشعر برجفة في كل جسده وكأنه في أصعب اختبار دخله يومًا.. أمام عينيها نسى حتى مبادئ وأساسيات الطب التي يعلمها أي طبيب مبتدئ وليس صاحب خبرة أكثر من عشر سنوات في الطب النفسي.. وعاد كطفل يتعلم الكلام وربما يحبو أمامها بغبطة من فرط سعادته التي لا يعرف لها سببًا واضحًا..

– سيدتي.. قاطعته فورًا... لتصحح له..

– سراب... أخبرتك.. أريد التحدث بحرية وسيدتي تجعلني أشعر بعدم الارتياح..

– حسنًا سراب أنا مستمع جيدٌ جدًا... لدقائق ظلت صامتة وظل هو يراقبها... كانت تستجمع شجاعتها لتبدأ... وتتلكأ يداها في وضع ورقة دعايته الإعلانية في حقيبتها السوداء والتي كانت مصنوعة من أفخم أنواع جلود الحيوانات التي سلخت حية لتحافظ على رونق الجلد.. ضحاياها كثر ذاك صاحب الفرو والآخر صاحب جلد الحقيبة لكن ماذا ستصنع من جلده هو؟

وهز رأسه لينفض أفكاره الغبية.. المسكينة تعاني وهو يتهمها بالوحشية.. وتفهم تباطئها في الحديث.. أو سيتفهم عنوة..

لذلك وضع نفسه في مكانها.. من الصعب البوح بأدق أسرارك حتى أمام طبيبك يجب أن تتحلى بقدر كبير من الجرأة لتتعرى أمامه... حلقها الجاف رطبته برشفة من الليمون المثلج...

من خبرته الطويلة كطبيب استطاع تصنيف الشخصيات... هناك من يفضل الحديث بمفرده ولا يحب أن يقاطعه أحدًا وهناك أمثال سراب الأسئلة المحددة والمباشرة قد تفيد في حل عقدة لسانهم... لو تركها لصمتها لن تتحدث أبدًا..

– ربما سيكون من الأفضل لو ساعدتكِ قليلًا... مبدئيًا سنتعرف.. سنبدأ بالأسئلة الشخصية... هل أنت متزوجة؟ سيبتهل كثيرًا كي تجيب بلا.. لكن مرارتها كانت أشبه بالعلقم الذي انتشر في الجو مع إجابتها... حتى أنها طغت على إحباطه...

– نعم.. إذًا فزوجها هو سبب مشكلتها هذا ما استشفه من نبرة صوتها... الصراع الأبدي بين الرجل والمرأة...

– هل لديكِ أطفال؟ ارتياحها الواضح مع إجابتها أكد له شكوكه.. زوجها سبب مشكلتها...

– لا.. الحمد لله..

– سؤالي القادم أعلم أنه أسوء سؤال قد يوجه لامرأة يومًا ما لكنه إجباري.. قاطعته قبل أن يكمل...

– أربع وعشرون في عمر السنوات ومئتان في عمر الهموم... قبل أن نبدأ يجب أن تعلم أنني سأدفع نقدًا وسأحاسب عن كل مقابلة بصورة مستقلة فربما أذهب يومًا ولا أعود... دائمًا كان يسعى للمكسب.. والمكسب السريع.. أراد تحقيق طموحه وأحلامه الكبيرة حتى على حساب المرضى.... نعم كان يساعدهم لكن كان يستنزفهم ماديًا... حظي بالشقة والسيارة الفخمة التي لطالما حلم بهما.. عيادته كانت في نفس البناية حيث يسكن ودفع الملايين كي ينسلخ من جلده ومن حارته.. ربما أيضًا تنكر لعائلته أو كان يقنع نفسه أنه يقوم بالواجب تجاههم وهو يعلم جيدًا أنه لا يفعل.. صحيح هو يرسل لهم مبلغًا ضخمًا كل شهر لكنه قطع كل صلاته البشرية بهم... وهم اكتفوا بما يرسله وربما يرددون لأنفسهم أيضًا أن هذا أفضل... أو في الحقيقة مقتنعون بأن أي شيء يأتي من ورائه أفضل من وجهه... كان يجمع الأموال مثل الملهوف ولم يتوقف حتى للتفكير فيما يريده كهدف في الحياة... جمع الأموال تحول ليصبح هو الهدف واستنزاف العملاء أصبح وسيلته لسداد الأقساط الضخمة التي ورط نفسه كي يعيش برفاهية... كلما استنزف العملاء أكثر كلما اطمئن إلى أنه سوف يستطيع سداد قسطه القادم الذي لا يرحم...

مع أن الصفقة التي أدارها مع مالك المجمع السكني خفضت الكثير إلا أن سيارته التي اضطر لشرائها لتناسب (الكمبوند) كانت بمبلغ خرافي ولذلك كان يعمل كثور في ساقية للتسديد.. ولكن مع

سراب الأمر مختلف.... إنها حزينة فعلًا سيساعدها حتى بلا مقابل...

– أنا طبيب سراب... رسالتي في الحياة هي أن أطيب القلوب ولا تهمني الأتعاب كثيرًا..

حقًا قالها؟ حتى هو لا يصدق ما يقوله لكنه قالها على كل حال..

كلمات ساخرة مع ابتسامة عدم تصديق خرجت منها بتلقائية تكشف عورته أمامها... قالت بسخرية واضحة..

– حقًا؟

صدمته سخريتها وظهرت الصدمة جلية على وجهه الذي تحول ليصبح بلا لون فعليًا ثم تحول للأحمر القاني بلون الخجل.. حقيقته واضحة للجميع فلماذا الكذب؟ وشعرت بصدمته فاستدركت..

– أنا أعني أنك شهير بارتفاع أتعابك ومهارتك الشديدة في المقابل... لا تقلق بشأني دكتور أنا أستطيع الدفع... النقود هي آخر همومي ثم نظرت إلى ساعتها بقلق..

– اليوم لن أستطيع البقاء كثيرًا.. كنت فقط أعاينك؟

سألها بعدم تصديق..

– تعاينيني؟

– نعم بالطبع.. يجب أن أشعر بالراحة النفسية مع من سأخبره أدق أسراري..

فسألها بسخرية..

– وهل نجحت في الاختبار؟

أجابته برضا..

– جدًا دكتور أكثر مما كنت أنا نفسي أتوقع... نجحت نجاحًا باهرًا فاق كل توقعاتي.. لم أعتقد أني سأجدك هكذا شكرًا لك..

– ولما الشكر؟ نحن لم نبدأ الجلسات بعد..

– يومًا ما ستعلم لما شكرتك اليوم ووقتها ستعلم أن جلساتك كانت مفيدة لي حتى من قبل أن تبدأ..

أعادت وضع معطفها عليها لتقفل عنه باب الجنة وحملت حقيبتها استعدادا للرحيل الذي يتركه في حيرة شديدة لا يعرف لها سبب...

قالت بغموض..

– لن أعطيك موعدًا لأنني لا أعلم ظروفي لكن أرجوك خصص لي ساعة كل أسبوع في مثل هذا الوقت لتكون الاستفادة كاملة ربما أستطيع المجيء وربما لن أستطيع...

وكما ظهرت فجأة اختفت فجأة... «آه منكِ يا سرابي أنا أعلم أن نهايتي ستكون على يديكِ لكن أنتِ قدري المحتوم.... ومن يستطيع أن يتحدى القدر؟»

***

# 2 | سيدة الأحزان

«هاجسي الخفي يؤرقني وعيناها تشفيني... ليتني استمعت إليه قبل أن تغويني فأنا صرت عبدًا خاضعًا لها ولا عزاء للهفتي وأهلًا بجنوني»

إنه الأسبوع الثالث ومازلت انتظر... حبر أقلامي قد جف من كتابة أحلامي.. وكمراهق عدت أكتب مذكراتي....

أين أنتِ يا سرابي؟ أنا ظمآن على أشدي وأتوق لشربة ماءِ

هل كنت أتوهم الهوى أم هي فعلًا طيفٌ منعشٌ أسعد أوقاتي؟

ألقى قلمه بحنق على مكتبه... لماذا تشغل تلك السراب أفكاره.. إنه يعترف بفعل أسوء الأشياء وأحقرها في خلال مسيرة حياته إلا إنه لم يقترب يومًا من امرأة متزوجة.. امرأة ملك لرجل آخر.. الزواج رباط مقدس ولم يكن ليدنسه أبدًا...إذًا لماذا يخالف الآن حتى المبدأ الوحيد الذي كان لديه؟

لثالث أسبوع وهو يلغي كل مواعيد فترة العصاري.. ثالث ثلاثاء يأتي وهو ينتظر بلهفة عساها تعود وتخبره بما يؤلمها.. هو يستطيع قراءة الألم وهي كانت تتألم.. أي خنزير هو زوجها الذي يسبب لها كل هذا الشقاء؟

اعترف لنفسه أن الرجال هم مصدر التعاسة في العالم لكن وراء كل رجل معقد امرأة غدرت به ووراء كل رجل حقير امرأة لم تربيه... وهو الإثبات الحي على ذلك... لكنه بذلك التعميم يظلم والدته الرائعة.. هو مجرد غرس شيطاني لا جذور وراثية له...

لطالما نصح مرضاه بكتابة مذكراتهم... هل سيتجرأ هو ويفعلها؟

هل أستطيع توثيق آثامي لتكون شاهدة على دناءتي ووضاعتي؟ ألا يكفيني عبئها في أفكاري؟

صحوة ضميري متأخرة وأعتقد أنه سوف يعود لسباته قريبًا مع أول رشوة حقيقية تعرض عليه.. إذًا لماذا تعذبني وأنا أعلم أنك لا خير يرجى من ورائك؟

للمرة الألف نظر في ساعته.. كان على وشك رن الجرس لمرزوق حينما دخل هو من تلقاء نفسه... ليتني تمنيت الملايين بدلًا من وجه مرزوق الخشن.. أو هل أطمع يومًا في تمني راحة البال؟

ليبادره بابتسامة خبيثة..

– سيدة السراب ترغب في مقابلتك..

إنها هنا فعلًا؟

قفز من خلف مكتبه... ليسأله بلهفة..

– هل هي هنا فعلًا؟ إذًا لماذا تتركها تنتظر ادخلها فورًا..

وبدون كلام هز مرزوق رأسه بطاعة وخرج لينفذ... «إنها النداهة التي ستؤدي إلى هلاكه...»

ألقى نظرة على مظهرة في المرآة الكبيرة المواجهة لمكتبه.. مع أنها طريقة صادمة للعلاج إلا أنها كانت مدرسته في العلاج أن يواجه المريض بحقيقة نفسه في المرآة والآن هو يواجه نفسه.. لطالما كان يغتر بوسامته وجسده المتناسق.. نظرات الإعجاب في عيون النساء وبالأخص حينما يعلمون أنه طبيب كانت تشعره بالزهو والتفاخر... كان كالطاووس منفوش الريش لكن!

اليوم كانت مختلفة... البرد القارص في الخارج ربما دعاها لارتداء الملابس الثقيلة.. تحت معطفها كانت ترتدي جينز وكنزة صوفية ثقيلة تخفي معالمها الأنثوية الرائعة.. أما شعرها الأشقر فرفع على هيئة ذيل حصان وشفتيها الكرزيتين الدقيقتين كانتا ترتعشان من البرد وتجعلاه يريد أن يحبس ارتجافتهما داخل شفتيه... أو ربما تعمدت الاحتشام لتعذب مخيلته التي تسترجع جسدها المثير في فستانها القصير الأحمر الذي صنع خصيصًا ليعذب الرجال...

وزيادة في تعذيبه ضمت معطفها بقوة وكأنها تحتمي به... كفه يتوق للقاء كفها في لقاء يشبع حواسه ظاهره التحية وباطنه الإحساس بجلدها الناعم... أراد أن يهتف بها يعاتبها على غيابها عنه كل تلك المدة لكن نظرة واحدة إلى وجنتها المكدومة علم منها سبب تأخرها... كدمة زرقاء باهتة احتلت معظم عظام وجنتها... ربما قضت الأسبوعين الماضيين في المستشفى بسبب تلك الكدمة وغيرها من الكدمات المخفية التي مجرد تخيل أماكنها يثيره... رفع أصابعه المهتزة من الغضب يلمس كدمتها برفق وحنان طاغيين..

«ذلك الوغد» كان يشعر بغضب هائل يعتمل في داخله.. ليته يرى ذلك الحيوان الآن أمامه ليعلم على وجنته وليهبه كدمة أشد من كدمتها..

خفضت عينيها أرضًا وهي تتجنب النظر إليه...رددت ببطء رفع درجة غضبه لدرجة لا تحتمل..

– اعتذر لتأخري... سأدفع عن الجلستين الماضيتين لا تقلق...

– الدفع لا يشغل بالي سراب... أعتقد أن المشفى كان فاخرًا جدًا أليس كذلك؟ ابتسمت بمرارة..

– جدًا... على الأقل وجودي فيه رحمني من رؤية وجهه العكر..

حسنًا دكتور أنا لا أستطيع التأخر كثيرًا... ساعة هي كل ما لدي من الوقت..

– مبدئيًا سراب أنا أفضل أن تناديني ياسر بدون أي ألقاب ألم نتفق على أن نكون أصدقاء؟ وساعة ستكون كافيةً تمامًا عندما يكون الكلام نابعًا من القلب... تنهدت بيأس...

– أتمنى أن تكون زيارتي مفيدة، السواد الذي يملأ قلبي سيغطي جدران عيادتك ويصبغها بلونه لكنها ضريبة مهنتك أليس كذلك؟ عندما شاهدت إعلانك في الجريدة قررت تغيير المستمعين هذه المرة.. فلطالما استمتعت بزيارة القبور.. الأموات يستمعون جيدًا جدًا.. هل يوجد لديكم تفسير طبي لمثل حالتي؟ أنا أعشق القبور وأفضل الجلوس أمامها بالساعات..

كانا مازالا يتحدثان وهو يلمس وجنتها ويهمس لها... لا حِرَفية لديه مطلقًا عندما يتعلق الأمر بسراب... لابد وأن يستعيد حرفيته وإلا لن يساعدها...

قادها إلى الأريكة الأنيقة والمريحة في طرف الغرفة.. تلك الأريكة دفع فيها مبلغًا ضخمًا لكنه لم يشعر يومًا بالندم.. كان يعلم جيدًا أن

المظاهر تجلب الأموال وهو حرص على الكثير من المظاهر.. ساعدها على خلع معطفها ثم مددها على أريكته المخملية البنية اللون بلطف واتجه إلى تغيير نظام الإضاءة في المكتب... الإضاءة الخافتة مع قليل من الموسيقي الكلاسيكية ستريح أعصابها وتجعلها تتحدث بحرية... ابتسم برضا عندما تأكد من تهيئة الجلسة كما يريد...

عاد وجلس على مقعد مريح من المخمل البنى يماثل الأريكة تمامًا كان يضعه إلى جوارها كي يستمع إلى مرضاه في جلسة حميمية خصصت للفضفضة والكلام بحرية... فالأريكة صنعت بجانب واحد فقط كي يتمدد العميل براحة واستمتاع... فور جلوسه تطلعت بحذر إلى يديه وسألته بفضول...

– ألن تحقنني بمصل الحقيقة مثلًا كي أخبرك بكل شيء؟ ابتسم رغمًا عنه...

– لا سراب... ليمون مرزوق سيكون كافيًا حاليًا... هو أقوى من مصل الحقيقة في تأثيره.. وكأن مرزوق كان يستمع إليهما فدخل حاملًا كوبًا ضخمًا من الليمونادة وانسحب في صمت... ارتشفت بضع رشفات قبل أن تسأله بفضول..

– لا تفسير لحالتي أليس كذلك؟ أجابها بثقة...

– بالتأكيد يوجد لدينا تفسير لكل شيء.. لكن اخبريني هل ترين الموتى وتتحدثين إليهم دائمًا أم فقط عند القبور؟

اعتدلت جالسة بحدة ووضعت كوبها على الطاولة الصغيرة بجوارها في حركة تدل على غضبها حتى أن بعض القطرات انتشرت على الطاولة لتفسد نظافتها البالغة...

– لا تحور كلامي ليناسب مزاجك دكتور أنا لم أقل أبدًا أني أراهم أو أستمع إليهم أنا فقط قلت هم يستمعون جيدًا إلى كل ما أقوله بدون أي مقاطعة... في الحقيقة هم مستمعون رائعون...

التقط كوبها وناوله إياه بعدما مسحه جيدًا بمحرمة نظيفة وشغل نفسه بمسح القطرات المنسكبة وهو يقول...

– ناديني ياسر سراب... ياسر فقط بدون ألقاب هذا أفضل صدقيني.. حدثيني كصديق وليس كطبيب... وحسنًا لن أحور كلامكِ... أعدك سأكون مستمعًا جيدًا مثل أمواتكِ وربما أفضل... عادت لهدوئها وأغمضت عينيها... «لا، لا تغليقيهما ودعيني أمتع نظري بتأملهما» وعندما فتحتهما أخيرًا قالت بهدوء..

– حسنًا سأجرب..

من خلال خبرته العملية أيقن الآن أن سراب قليلة الكلام... وتحدثها من تلقاء نفسها ليس مستحيلًا فهي تحدث الأموات في روتينها اليومي وهو فقط سيساعدها لتبدأ لكن بالكثير من الحذر حتى لا يغضبها فيفقدها...

– لماذا لا تخبريني عن اسمك الحقيقي... نحن لسنا متعادلين أنتِ تعرفين اسمي ومهنتي وعنواني وأنا لا أعلم عنكِ أي شيء أبدًا... أجابته بلهجة لا تحتمل النقاش..

– هذا لمصلحتك.. صدقني كلما عرفت أقل كلما كنت في الجانب الآمن.. سألها بعدم فهم...

– الجانب الآمن؟

– بالتأكيد... يكفي أن أخبرك أن زوجي مسؤول كبير في جهة سيادية ولولا أن ظلمه استفحل لما استطعت أن أكون هنا اليوم... غريب حارسي الشخصي سيتحدث إليك هو الآخر يومًا ما فهو أحد ضحاياه... أنا أعلم أنه يريد مساعدتي ولذلك تمكنت من زيارتك بدون معرفة الشيطان..

منذ أن اختار الطب النفسي بالتحديد دونًا عن فروع الطب الأخرى اعتاد أن يتعامل مع مرضى من كل الفئات وفي الفترة الاخيرة مرضاه كانوا على درجة عالية من الثراء والأهمية ولكن النبرة التي تتحدث بها سراب عن زوجها تدل على أنه أحد رجال الحكومة الهامين... لابد وأن يتعامل معها بحكمة ويحجم من أفكاره الجامحة تلك، لم يعبث يومًا مع امرأة متزوجة ويوم أن يقرر أن يفعلها يختار زوجة رجل من الحكومة يا لا غبائه..

دائمًا كان يلجأ إلى وضع نظارات طبية حينما يتصنع الوقار أمام عملائه والآن هو يحتاج إليها... في حركة سريعة وضع نظاراته... ربما لتشكل حاجزًا يمنعه عنها وهي صمتت لدقائق عديدة قبل أن تكمل..

– الرجال في حياتي مأساة إغريقية لا حدود لبشاعتها... ملحمة الاستغلال والقذارة.. (لا مستحيل) أراد أن يكذب نفسه لا يمكن أن يكون الألم الذي يمزق أحشائه الآن هو ألم الغيرة... لا بل هو فعلًا ألمها لا يمكن أن يخطئ فهمه أبدًا.. مئات النصال الحادة مزقت معدته مع جملتها البغيضة (الرجال في حياتي) ... نزع نظاراته وألقاها بعنف لتتحطم على الأرض ولا إراديًا وجد نفسه يسألها بعنف..

– هل كان لديكِ العديد من العلاقات؟

فتحت عينيها المغمضتين وتطلعت إليه بدهشة لكنها أجابته..

– نعم... رجلين أو أشباه رجال في الواقع... ربما نظلم جنس الذكور بأكمله إذا ما اعتبرنا هذين البغيضين من الرجال...

مازال يشعر بغليان الدماء في عروقه لكن ثورته بدأت تخمد عندما قالت..

– اسميهما سيتكرر كثيرًا لذلك احفظ جيدًا الأول سألقبه بالحقير والثاني سيكون الشيطان... أنت بالطبع استنتجت أن زوجي هو الشيطان... سأبدأ بالحديث عن الحقير... لن اقول أبي فهذا لا يمكن أن يكون أب...

حالتها معقدة أكثر مما كان يتوقع... ربما المشاكل الزوجية مدمرة لكنها تكون مرتبطة بفترة الزواج... ربما بقليل من الدعم أو كثيره والتخلص من الشريك المزعج يستعيد المريض حياته لكن حينما يكون الأب أو الأم هما المتورطان في العذاب من الصعب تطييب القلوب وقتها... صمتها هذه المرة طال وهو وعدها أن يكون مستمعًا جيدًا كجودة الأموات الذين تفضلهم..

لن يتعجلها... نطقت أخيرًا بصوت لا يشبه صوتها الذي كانت تتحدث به.. صوتها كان مستخلص صافي من المرارة والألم..

– أنا كنت طفلة وحيدة ووالدتي توفت وأنا في العاشرة... كان لدي شقيق يكبرني لكنه ترك المنزل من قبل وفاة أمي بفترة طويلة لذلك اعتبر نفسي طفلة وحيدة.. بعد عام على وفاتها بدأت نظرات الحقير تتبدل وأصبح يتعمد ملامستي بطريقة مقززة... وتدريجيًا أصبح يتحرش بي جنسيًا كلما استطاع... وقتها لم أكن أفهم كثيرًا ما كان يحدث لكني كنت أكيدة من أنه عطل قفل باب الحمام متعمدًا...

– لماذا سراب؟ لماذا تعتقدين أنه عطل القفل عن عمد؟ أجابته بسخرية....

– يا لا ذكائك الخارق.. ألا تعلم لماذا؟ ركز نظراته في عينيها وهو يقول...

– في موقعي هذا لا يحق لي الاستنتاجات... أنا استمع إليكِ فقط.. أنتِ اخبريني لماذا فعل ذلك؟ هو كان يعلم أنه يضغط عليها بقوة.. كان يخاطر مخاطرة غير محسوبة وإما أن تصيب محاولته ويجعلها تواجه خوفها وعارها بلا خجل أو تنهار كليًا... راهن على قوتها وانتظر...

وكأنها كانت تعلم فيما يفكر سمعها تردد...

– أنا صمدت للآن لأنني قوية جدًا فوق ما تتخيل... ربما فتاة أخرى كانت تحطمت بالكامل لكن أنا صمدت وقاومت...

لن يجعلها تهرب الآن.. واصل ضغطه...

– مازلتِ لم تخبريني لماذا؟ وأنا مازلت انتظر إجابتكِ.. محاولته نجحت تمامًا فصرخت بعصبية...

– كي يقتحم الحمام ويراني عارية بالطبع... لم يكن يقتحم الحمام فقط بل وغرفتي أيضًا...

سيضغط بكل قوته.. إنها على استعداد للحديث فهي الآن ضعيفة وبلا جدار القوة التي تتصنعها... فلينتهز تلك الفرصة...

– إذًا متى بالتحديد اغتصبكِ سراب؟ لدهشته وجدها تقول بلا انفعال..

– أنا لم أقل مطلقًا أنه اغتصبني..

– لكنه فعل أليس كذلك؟ أنا شخصيا أكيدٌ من أنه فعل لكن أريد أن أسمع ما حدث منكِ أنتِ... تطلعت إلى ساعتها بقلق... تجنبت الإجابة عليه وهي تحاول النهوض قائلة

– أنا تأخرت كثيرًا.. سنتحدث لاحقًا... لو تركها ترحل الآن لن تعود مطلقًا ولن يراها مجددًا... هتف بصرامة..

– الساعة لم تنتهي بعد سراب.. عودي إلى مكانكِ فورًا واخبريني عما حدث بالتفصيل... اخبريني... متى اغتصبكِ والدكِ؟ زمجرت بغضب...

– هو يسمى الحقير.. لا تسميه أبًا مطلقًا وإلا لن تراني مجددًا.. ابتسم بلطف..

– حسنًا سنعقد صفقة أخرى وهذه المرة بشروطي أنا... ستخبرينني اليوم عن الحقير بالتفصيل وسنؤجل الحديث عن الشيطان للجلسات القادمة.. اتفقنا؟

هدئت قليلًا وعادت لصمتها وإغلاق عينيها...

– كنت أتعمد الاستحمام في أوقات غيابه عن المنزل لأني كنت أكره ما يفعله... وفي يومٍ عاديٍ ككل الأيام انتظرت حتى رحل إلى عمله وبدأت في الاستحمام... شهقاتها كانت تمزق قلبه لكنه تركها تكمل...

– اقتحم علي الحمام وانتهكني فيه.. كان عمري بالكاد يصل إلى الثانية عشر... لم يرحم عمري الصغير أو صلتي به... تجرد من كل مشاعره الآدمية لينتهكني...

يا للهول... هو كان يتوقع ما ستقوله لكن سماع تلك البشاعة بأذنيه تختلف إنه يعلم جيدًا كم هو شخص دنيء وحقير... عديم الأخلاق وفاسدٌ تمامًا... حطم قلوب العديدات وأفشى سر مهنته

وتنصل من أصله وقطع صلاته الروحية مع أسرته إلا أن الحيوان الحقير الذي لا يمكن تسميته بأب فاق كل حقارة معروفة في الكون.. زنا المحارم بوجهٍ عام من أقذر الخطايا وأشدها بشاعة ولكن أفظعها على الإطلاق عندما يكون الجاني أبًا... ينعدم الأمان حتى الحيوانات لا تفعل ما فعله... أراد أن يدمر الكون من السخط الذي يشعر به الآن.. مسكينة سراب كل ذنبها أنها حظيت بأب خنزير مثله... على الرغم من عمله كطبيب نفسي ومرور حالات عديدة من زنا المحارم على عيادته إلا أنه مع سراب كان يتعامل مع الأمر بصورة شخصية...إنه ينزلق في هوة حبها بسرعة الصاروخ... لماذا هي؟ سؤال لم يجد له أي إجابة ترضيه فاستسلم..

من ثاني لقاء وهو خر صريعًا فليكن الله في عونه بعد عاشر لقاء بينهما..

سيبحث عن ذلك العفن وسيقتله بيديه... وسيجعله يدفع الثمن... على الرغم من شعوره بالقرف وحالة الاشمئزاز التي هزته وأصابته بالغثيان إلا أن مشاعر النخوة التي أثارتها سراب لديه أعطته الأمل... هو ليس سيئًا بالكامل كما كان يعتقد... سيعود عن طريق السوء وسيبدأ بأسرته...

بوالدته البسيطة التي يشتاق إليها ويشعر بحنين بالغ إليها ولحضنها... بأخيه باسل الذي يفتقد وجوده.. كان يمكن أن يتقرب إليه بصورة أفضل.. أو بشقيقته الوحيدة التي لم يتعرف إليها أبدًا.. لماذا يحرم نفسه من وجوده وسط أسرته... هو تنكر لأصله الوضيع لكن لماذا لم يأخذهم معه إلى المجتمع الراقي الذي أصبح يحسب عليه... لماذا لم يرفعهم إلى دنيته الجديدة؟ وجود سراب في حياته سيجعله يعيد النظر في كثير من أموره الشخصية وسيفتش عن ضميره فربما

يجده... لكن لاحقًا وليس الآن.. الآن هي بحاجة إليه وهو لن يخذلها أبدًا..

ربما ظهورها في حياته سيكون الخلاص لهما معًا... أهي هاجسه السيء ونذير شؤمه أم سبب خلاصه؟ أكملت بصوت معدني لا حياة فيه..

– ظل لعامين كاملين يغتصبني مستغلًا ضعفي وعدم فهمي وخوفي الفطري منه... لكن دائمًا المغتصب يكون جبانًا رعديدًا بالإضافة إلى كونه خسيسًا...

وببلوغي الرابعة عشر أصبحت أقوى وكراهيته أعطتني الجرأة لضربه... مع محاولته مجددًا لاغتصابي ركلته وصفعته بقوة صدمته وجعلته يتوقف.. وأعقبتها بصراخ هيستيري كاد يجمع علينا الجيران... ومن يومها لم يلمسني مجددًا وعلم أن سراب جديدة قد ولدت.. سراب أقوى وأكثر كراهية ومرارة...

إنها تجعله مختلف عن طبيعته الجافه... لأول مرة في حياته يتعاطف مع مريض.. كان يستمع إليهم بعقله ثم يعالجهم لكن مع سراب يستمع بقلبه..

كيف استطاعت فعل ذلك؟ ببساطة جعلته يكتشف أنه يملك قلبًا... من أبسط قواعد الطب النفسي ألا تدع المريض يستشف رأيك الشخصي فيما يرويه... فقط استمع بجدية واهتمام... الكثير من المرضى يكره التعاطف ومعظمهم سيرفض احتقارك عندما يروي شيئًا مخزيًا كالشذوذ الجنسي مثلًا لذلك كان يحرص على التعامل بحرفية وعدم إظهار مشاعره الشخصية لما يستمع إليه.. فقط يعطي الرأي الطبي... وهو فعلًا كان يستمع إلى المرضى بروتينية لمجرد أداء

عمله أما معها فلا قانون مطلقًا يحكمه.. فقط شهواته وغرائزه وقلب مرهف...

كان يعلم أنه مخطئ لكنه على الرغم من ذلك سألها بإشفاق عجز عن اخفائه...

– لكنكِ لم تتركي له المنزل أليس كذلك؟

– أخبرتك منذ قليل.. من يومها ولدت سراب جديدة.. لا لم أترك المنزل... أصبح هو من يشعر بالخوف والتهديد.. كان يعلم أنني مع أول فرصة سوف أخبر الجميع بفعلته... كنت أبصق في وجهه كلما رأيته ولم يجرؤ على الاعتراض..

– إذًا لماذا لم تخبري أحدًا عن دناءته؟ لماذا لم تشتكيه رسميًا؟ نظرت إليه شذرًا وهي ترفع إحدى حاجبيها سألته بوقاحة مريرة...

– هل جربت الاغتصاب من قبل؟ مع أنها تعلم الإجابة إلا أنه أجابها ليريحها... هز رأسه بالنفي وهي ابتسمت ابتسامة صفراء لتقول...

– إذًا اسحب سؤالك السابق وإلا اعتبرتك غبي ولن أواصل الجلسات بعد الآن.. لمعلوماتك الأصعب من الاغتصاب هو الحديث عنه..

– حسنا جدًا سأسحبه لكن اهدئي... اخبريني هل لا زلتِ ترينه...

الآن ضحكتها كانت تجلجل في كل العيادة...

– مازلت لا تدرك كم أصبحت قوية يا ياسر... رأسه كان مهري الوحيد وشرطي لقبول الزواج من الشيطان.... كان من الطبيعي أن يستنكر ما قالته لكن المدهش أنه شعر بارتياح غامر.. كطبيب يحاول إنقاذ الأرواح عادة لكن مع والد حيوان كوالدها الأمر مختلف لو

لم تكن انتقمت لكان قتله بنفسه.. الوضيع نال ما يستحقه.. سألها بفضول..

– هل قتله؟

– ليس بالضرورة أن يقتله ليخلصني منه ويسلم رأسه لي... سأخبرك القليل فدور الشيطان في الحديث لم يأتي بعد... عندما بلغت الثامنة عشر قرر الحقير أن يزوجني لسيده... نعم هو كان يعمل كسائق للشيطان.. تحالفا سويًا.. الحقير كان يعلم جيدًا مزاجه الشاذ وميوله الجنسية المنحرفة لذلك سلمني له خاضعة وهو قبل لأنه لا يهتم للمبادئ... زوجني إليه وهو يعلم جيدًا ما سيفعله بي وأنا قبلت لأنني كنت أعلم نفوذه.. أردت الخلاص والانتقام.. شرطي الوحيد الذي وضعته عندما قابلت الشيطان شخصيًا أن يخلصني منه وهو لم يتأخر أبدًا.. متعته التي لا تضاهيها أي متعة هي إيذاء الآخرين وهو يستخدم سلطته جيدًا لتحقيق ذلك.. ينتشي بكل مسكين يمارس عليه ساديته وإلى الآن الحقير يتعفن في السجن بتهمة الإرهاب والإضرار بأمن الدولة..

وكسندريلا لكن حزينة تطلعت لساعة يدها ثم في قفزة عملاقة كانت أمام الباب ترتدي معطفها... قالت بدون أن تستدير...

– سأعود..

وكعادتها غادرت وتركته يقرص نفسه بعنف ليتأكد من حقيقة ما يحدث وفقط عطرها القوي الذي يملأ الجو وكوبها الفارغ هما ما جعلاه يتأكد من أنه لمس السراب بيديه....

***

# 3 | وللحديث بقية

الحارة التي سلخ نفسه منها سلخًا تناديه للعودة مجددًا..

والدته المريضة تريد أن تراه.. في صحوة ضميره الأخيرة اعترف لنفسه بحبها ولكنه أضعف من أن يعود...

ليتها تلح عليه بزيادة وتجتهد في الدعاء فلربما تصادف دعوتها الملهوفة ساعة إجابة وتصعد إلى السماء مباشرة دون أي حواجز...

منذ أن رحل عن ذلك المنزل وشق طريقه وهو أصر على نسيان تفاصيله لكن اليوم قلب الأم أعاده... أرادت رؤيته وهو استجاب..

والدته قليلة الحجم كبيرة القلب.. لا تستطيع فك الخط لكنها تستطيع سبر أغوار قلبه بسهولة.. لطيفة السيدة البسيطة أنجبت أربعة من الذكور وياسر كان أكبرهم... وابنة واحدة رقيقة للغاية منذ تخرجه وهو يساهم في تعليم اشقائه الأصغر منه وخصوصًا بعد وفاة والده المؤلمة التي خلصته من عذابه بعد صراع طويل مع مرض الكبد.. وعندما أصبح (ياسر ربيع) الطبيب المشهور لم يتخلى عن مسؤوليته المادية بل زاد فيما يدفعه أضعاف ربما ليعوض مسؤولية أدبية تنصل منها وربما ليكمل رشوة ضميره الأحمق..

اعترف الآن بأنه لم يكن يرغب في رؤيتها كثيرًا كي لا يترك نفسه إلى الضعف الذي ينتابه كلما يراها... ربما كان سينخ يومًا ويعود إلى المنزل طواعية ويترك الترف الزائف الذي كان يقنع نفسه أنه كان منتهى آماله..

دموعه في حضرتها تنبئه أنه مازال يحمل المشاعر ولذلك يتجنب إظهارها فيبتعد حتى لا يضعف...

– ياسر الحمد لله أنني تمكنت من رؤيتك يا ولدي قبل وفاتي..

أخيرًا سمح لدموعه بالتحرر... أنه يحبها فعلًا ويشعر بالراحة في حضنها الذي يمتع نفسه به الآن... لماذا يحرم نفسه من متعة قربها؟

أجابها وهو يمسح دموعه...

– عرضت عليكِ من قبل الإقامة معي وأنتِ رفضتِ... ومازلت أعرض... تعالي معي أمي وانسي الحارة... ابتسمت بحزن وهي تقرص أذنه بلطف..

– أنت تريدني أنا فقط يا ياسر.. لتكن صريحًا مع نفسك بني.. أنت تعلم جيدًا أن هذا مستحيل.. أي أم سأكون إذا ما تخليت عن اشقائك...

– هم لا يحتاجونكِ أمي.. تعالي للإقامة معي من اليوم وتستطيعين اصطحاب هنا معكِ.. أما أشقائي فأصغرهم أصبح رجلًا..

اتركيهم يشقون طريقهم في الحياة بأنفسهم كما فعلت أنا.. وأعدكِ أنا لن أتوقف عن دعمهم ماديًا أبدًا..

«نفس البطن التي أنجبته أنجبتهم لكنهم يختلفون كل الاختلاف.. كل منهم له شخصيته المميزة ربما ياسر أقواهم لكنه أقساهم أيضًا ليته

يراجع نفسه قبل فوات الأوان.. الله يعطي الفرص مرات ومرات لكن المصر على الخطيئة لن يستوعب أن الوقت الذي أمامه يتناقص».

توقفت عن قرص أذنيه لتربت على كفه بحنان...

– هم ليسوا أقوياء مثلك يا بني عدني فقط أن تتقرب إليهم أكثر.. أنا أشعر باقتراب الأجل وأتمنى أن أراكم على علاقة طيبة.. صلة الرحم يا بني ليست فقط أن ترمي لهم مبلغًا كل شهر وحتى وإن كان ضخمًا كالذي ترسله لنا... اشقائك هم سندك.. وأنت الكبير.. اجمعهم تحت جناحك يا ياسر قبل فوات الأوان...

أنا لا أطالبك بالإقامة معنا أو دعوتهم للإقامة معك.. أنا فقط أطلب منك أن تودهم.. ماذا تعلم عن اشقائك؟ متى كانت آخر مرة رأيتهم فيها أو تحدثت إلى أحدهم؟ جرعات تنشيط الضمير هذه المرة كانت مكثفة.. مرض والدته جعلها تتحدث بقسوة وتؤنبه... معها حق تمامًا..

في الحقيقة ماذا يعلم عن اشقائه سوى اسمائهم التي يكاد ينساها هي الأخرى... لسنوات وهو يعيش بلا تأنيب ضمير والآن ضميره يؤلمه بسبب الكثير والكثير....

هل للأمر علاقة بسراب؟ موعدها الذي ينتظره بفارغ صبر سيحل بعد ساعات... إن استطاعت الحضور اليوم فستخبره عن زوجها... الحب بلا أمل مدمر.. لماذا دونًا عن إناث العالم كلهن يحب امرأة متزوجة وزوجها ذو مركز حساس...

– أنت تخسر كثيرًا يا ياسر... باسل رجلًا حقيقيًا هو أصغر منك عمرًا لكن يُعتمد عليه... هل تعلم أنه كان يرفض مساعداتك المادية وظل يعمل طوال فترة دراسته للهندسة كان يقول.. «أنا أريد شقيق

فقط أما إعالة نفسي فأنا قادرٌ عليها..» وعمار يقبل مساعدتك على استحياء لأنه لا يملك الوقت للعمل مع دراسته الصعبة وأنا أعلم أنه ينوي أن يصبح مثلك عندما ينهي دراسته.. أنت قدوته يا ياسر.. هو التحق بالطب كي يكون مثلك واختار الطب النفسي مثلما فعلت أنت إنه يسير على خطاك.. أما مؤمن وهنا فهما يحتاجان إلى أب... ألم تفكر إنهما لم يعرفا والدهما مطلقًا... والدكم توفي ومؤمن رضيع.. والآن هو يمر بمراهقته ويحتاج إلى السند... وهنا الآن التحقت بالجامعة وربما تحرمها من فخرها بنجاح شقيقها المشهور والتباهي به وسط زميلاتها ومعارفها.. لم نعد بحاجة إلى أموالك... أصبح لدينا وفرة منها.. باسل وعمار يستطيعا إعالة نفسيهما وما أرسلته سابقًا ادخرته في حسابي المصرفي ويستطيع أن يغطي نفقات مؤمن حتى يستطيع الاعتماد على نفسه هو الآخر.. ونفقات هنا حتى تنهي دراستها.. إما أن تكون أخًا حقيقيًا لأشقائك أو اذهب ولا تعد مطلقًا..

اللحظة الحاسمة... والدته وضميره يتكاتفان ضده... هو الآن أضعف ما يكون.. تهديد والدته صريح إما أن تربطه صلات حقيقية بلحمه أو يبتعد.. شقيقاه الأكبر سنًا اكتفيا من اعتبارهما شحاذين يلقي إليهما المعونة الشهرية وشقيقه الأصغر كان يحتاج إلى أب لم يعرفه مطلقًا...

حياته تصل الآن إلى أكثر منحنى خطر قد يمر به.. يعاد فيه ترتيب فوضى مشاعره وإنعاش ضميره.. كل شيء فعله يستطيع إصلاحه ولكن ذنبه تجاه فواز القطان لن يجعله ينام قرير العين أو يهنأ مطلقًا...

كيف ينام براحة وهو يعلم أنه تسبب في مقتله؟ كلما أغمض عينيه يرى فواز يتوعده.. هز رأسه لنفض الأفكار السيئة منها وانحنى على كف والدته يقبله بحب..

– ساعديني حبيبتي ولا تغلقي قلبكِ دوني.. أنا الآن أمر بأشد لحظات حياتي تخبطًا ودعواتكِ سوف تنجيني...

إنه قلب الأم الذي لا يخطئ أبدًا... كانت تعلم إنه يمر بأزمة ما.. قلبها شعر بذلك ولذلك أرادت رؤيته.. أرادته إلى جوارها.. قبلت رأسه بحنان وقالت..

– أنا أدعو الله عز وجل في كل صلاة يا ولدي أن يحميك وأن يكفيك شر نفسك وشر من لا يخاف الله.. ارم حمولك عليه لترتاح وانو توبة صادقة عن كل ذنوبك فهو غفور رحيم.. وابحث يا ولدي عن كل من ظلمتهم واطلب مغفرتهم حتى تنال المغفرة التامة من الرحمن...

وفجأة هتفت هنا بصوت يقطر فرحة..

– ياسر أنت هنا حقًا؟

والتفت بحدة ليشاهدها تدخل من باب المنزل.. الفتاة كبرت وأصبحت رائعة الجمال.. وصوتها الحنون يدل على فرحتها الحقيقية برؤيته.. دون أي زيف أو غرض.. كم كان وغدًا عديم الإحساس كافرًا بالنعمة طوال الفترة الماضية؟!

ماذا سيقول؟ وارتبكت حروفه لتخرج كلماته غير واضحة من شدة تأثره..

هل العودة بالزمن متاحة؟ هل طلب السماح الآن من الممكن قبوله؟ لكن فرحة شقيقته كانت حقيقية جدًا وتمنحه أملًا ليس بضئيل عن إمكانية التصليح.. بل وإمكانية العودة لحضنهم الذي يفتقده هو قبلهم دون أن يشعر بغربة.. وشعرت هنا بتحشرج صوته وصعوبة كلماته فاكتفت بإلقاء نفسها بين ذراعيه بحب.. العناق عبر

عن مشاعر سنوات ظلت حبيسة الصدور ولن تكتفي منه أبدًا وهتف ياسر بصوت مبحوح..

– اشتقت إليكِ يا بطتي الصغيرة..

خرجت كلماته تلقائية هكذا كان يسميها وهي صغيرة..

يا الله كم افتقدت تلك الكلمة.. وشعرت «هذا ياسر أخيرًا».

ولم تكن كلمات والدته واضحة لكن دموعها كانت معبرة عن سعادتها بهذا اللقاء الذي تأخر كثيرًا لكن معنى كلماتها لا يحتاج للكثير من الذكاء لفهمه ومعناه.. «لم يفت الأوان بعد»..

***

«حتى تنال المغفرة التامة» هل يجرؤ بتمني ذلك؟ كيف وهو ذنوبه عديدة ومتشعبة.. والأكثر صعوبة أنها أخذت أناس في طريقه.. أناس اضطر لدهسهم لكي يقف هو حيث يقف الآن.. وأناس استغلهم لمجرد التسلية وتضييع الوقت..

ظل يحدق في سقف غرفته لساعات... هو لم يخدع أبدًا أي أنثى ليسقطها في حبائله بل كان صريحًا وواضحًا منذ البداية لكنهن في النهاية تأذين بسببه وذرفن دموع تمزقه الآن... كلما استمع إلى سراب وهي تجسد حقارة جنس الرجال كلما احتقر نفسه فهو أحدهم... ثم كيف سينسى أنه السبب في موت (فواز القطان).

عاد بذاكرته إلى ذلك اليوم المشؤوم الذي تجرد فيه من كل أخلاقه حتى المهنية منها وأفشى السر الذي باح به فواز له في إحدى جلساتهما..

فواز صحيح كان وغدًا حقيرًا لكنه لجأ إليه لأنه كان يشعر بالذنب...

وهو لم يمهله الوقت ليتوب عن ذنبه... فواز اعترف له أنه غرر بسما شقيقة رجل الأعمال الملياردير سعيد الجبالي صاحب شركات الجبالي للمقاولات وفي نفس الوقت وزيرًا في الحكومة.. وجعلها تسلم له نفسها ثم بدأ يساومها... كان يريد إذلال سعيد وجعل أنفه في التراب لكنه دهس سما الرقيقة في طريقه فلم تتحمل وانتحرت... فواز كان يبكي بحرقة وضميره يؤلمه.. هو أحب سما فعلًا لكنه استخدمها للانتقام من أخيها القذر كما كان يسميه فواز.. وعندما علم سعيد أن فواز عميله، عرض عليه مبلغًا ضخمًا من المال وتسهيلات كبيرة تضمن له شراء شقة وعيادة في المجمع السكني الراقي الخاص به في مقابل تسجيل اعتراف كامل لفواز وعندما سأله عن نيته بخصوص فواز أخبره أنه فقط سيواجهه...

«خيانة مريض واحد فقط كانت سكته للرفاهية فاستغل الفرصة وقبل برشوة ضميره وباح بسره».

الأموال أغرته ونقل عيادته وسكنه لكمبوند (ديانا) الراقي كان أكبر من صحوة ضميره فقبل وهو الآن يعض أنامله من الندم فلم يهنأ يومًا بما حققه... وكلما تذكر أن سعيد قتل فواز بسبب ذلك التسجيل لا يسامح نفسه مطلقًا... وسعيد ابتسم بشيطانية وهو يقول..

– إنه القصاص دكتور لا تشغل بالك.. سعيد استخدم كل سلطته ونفوذه وأمواله لتحقيق مآربه..

(القصاص)... هو أيضًا سيأتي دوره في القصاص يومًا ما.. سيقتص القدر لكل من أساء إليهم في طريق صعوده.. الطموح جعله أعمى البصيرة فدهس الكثيرين في طريقه... الأموال التي بنى بها عيادته وشقته الراقية ملوثة بالدماء والأقساط الشهرية التي يدفعها تكمل شعوره

بالعار... ضميره للأسف كان له ثمن وهو عيادة وشقة في كمبوند راقي بدون مقدم وبأقساط مريحة جدًا أغرته بشراء سيارة فخمة تتماشى مع كمبوند (ديانا) موطن الوزراء وملوك المال.. الأقساط الضخمة تجعله عبدًا لها ويواصل في غيه كي يسدد وإلا ستسحب منه أملاكه ويعود إلى نقطة الصفر بعدما باع ضميره... كم كان سعيد ذكيًا بتوريطه.. إنه يلوي ذراعه ويجعله يستمر في اللهث وراء جمع الأموال ليسدد الأقساط فلا يتوقف للتفكير أو لمراجعة نفسه...

لكن هذا الحمل انتهى الآن فالشهر القادم سينتهي تمامًا من سداد ثمن وحداته بالكامل وسيبدأ في العمل بنظافة... لستة سنوات كاملة وهو يركض كالحمار لكن الحمد لله من الآن وصاعدًا سيبدأ صفحة جديدة في حياته..

لم يكن يتوقع أنه في يوم ما سيحب من أول نظرة لكنه فعل.. أحبها حبًا لا شفاء منه ولا أمل فيه... إن لم يكن مقدرًا له أن يكون معها فعلى الأقل سيساعدها على تجاوز ألمها ويعيد بناء روحها الجريحة... سيضمد جراحها لتهدأ جراحه هو..

نظر مجددًا إلى ساعته.. اليوم هو الثلاثاء موعدها الأسبوعي.. لا يدري من منهما يحتاج إلى جلسة العلاج.. من الطبيب ومن المريض.. الأمور اختلطت لديه لكنه أكيدٌ من أنه أيضًا يرتاح بالحديث إليها... سراب أعادت إليه آدميته وإحساسه.. أصبح يراجع تصرفاته ويندم...

ارتدى ملابسه بعناية.. وأولى حلاقة ذقنه الكثير من الاهتمام.. ليتها تضع رأسها في حضنه وتبكي... اليوم ستتحدث عن الشيطان.. مجرد ذكره يجعل جلده يقشعر وشعر جسده ينتصب.. ستحكي له عن جحيمها.. هي بحاجة إلى تناول عقاقير مضادات الاكتئاب لكنها

سترفض.. فهي أخبرته أنها تأتي فقط إلى الفضفضة ولا تحتاج إلى أي عقاقير..

هو يعلم كم هي قوية وتتجاوز اكتئابها بنفسها لكنه يريد أن يعطيها بعض العقاقير لتجعلها متبلدة فلا تشعر بالألم.. التبلد سيفيدها ويجعلها تتحمل صحيح أنها لم تشرح باستفاضة ما يفعله لها الشيطان لكنه استنتج واليوم سيتأكد...

(برد يناير).. البرودة الشديدة في الخارج ربما ستمنعها من الخروج.. إنها أسوء موجة صقيع تتعرض لها البلاد لكن هل برد مشاعرها سيمنحها القوة للخروج في مثل هذا الطقس.. لا يعلم عنوانها أو من أين تأتي.. لكنه تمنى أن تنتصر على الأحوال الجوية وتتمكن من القدوم..

هبط في خطوات متثاقلة إلى عيادته التي كان مرزوق ينظفها ويعقمها بالديتول.. كم هو مخلص مرزوق.. منذ أن عالجه من إدمان الكحول ومنحه وظيفة وهو يخدمه بإخلاص.. حفظ له الجميل لأنه أعاد إليه حياته وأعاد إليه زوجته التي كانت تطلب الطلاق وحمى أطفاله الذين كانوا في سن المراهقة من التشرد... والآن بعد ثماني سنوات من الاستقامة والمواصلة على التوبة مرزوق مازال يخدمه بإخلاص... حتى بعد وفاة زوجته واستقلال ابنائه رفض أن يتركه وظل يعمل لديه.. ربما صنيعه مع مرزوق هو العمل الجيد الوحيد الذي فعله في حياته كلها ويفتخر بذلك الانجاز فلربما لن يكرره أبدًا.. ربت على كتفه بامتنان وهو يقول..

– لا تجهد نفسك أيها العجوز لا مرضى لدينا اليوم... رفع مرزوق رأسه وقال بخبث..

– بالتأكيد فاليوم هو الثلاثاء لكن ماذا عن الموعد الذي سيحين بعد قليل؟ لأول مرة في حياته يحمر وجهه وهو يقول..

– أوه تلك.. ليهز رأسه بتأكيد...

– نعم دكتور موعد سيدة السراب.. تنهد...

– إنها ليست جلسات رسمية مرزوق.. هي تتحدث كصديقة..

سيقولها وأمره على الله.. ترك الممسحة من يده وتطلع إليه وعلى وجهه ملامح الجدية..

– دكتور اسمح لي بالحديث معك بحرية.. أنت لست مجرد رب عمل.. أنا أعتبرك ابن لم أنجبه وجميلك يطوق رقبتي...أنا أعمل لديك منذ ثماني سنوات ولم أراك بهذا الحال أبدًا... أنا لم أوافق مطلقًا على علاقاتك النسائية العديدة لكنك منذ شهر لم تخرج في موعد مع أي فتاة... منذ شهر يا دكتور بالتحديد منذ قدوم سيدة السراب إلينا.. من جلستين وتبدل حالك وهذا يجعلني أتساءل عن حالك بعد الجلسة الثالثة...

حتى مرزوق شعر بالتغيير الجذري الذي أصابه وبدأ في التساؤل.. سراب بالفعل أبدلته في مقابلتين فقط.. أكمل بحياء..

– سيدي اسمح لي بتحذيرك.. لا تطمع فيما هو ملكٌ لغيرك وإلا ستكون أنت البادي بالاعتداء والبادي أظلم...

– أنا لا أطمع فيما يخص غيري أنت مخطئ مرزوق.. هي مجرد مريضة..

– لا دكتور لست مخطئًا وهي ليست مريضة عادية ولدي الدليل فلا تحاول التبرير أنا لا أحاسبك.. كانت لديك أخطائك لكن أيضًا

كنت محتفظًا ببعض المبادئ التي تجعلك تملك بقايا ضمير ومن يملك بقايا الضمير من الممكن جدًا إنعاش الباقي لكن من يموت كل ضميره لا أمل منه مطلقا فالميت لا يعود للحياة إلا يوم البعث..

مرزوق لديه الكثير من الكلام.. يكشفه أكثر من مرآته التي يحتفظ به لتكشف للناس عوراتهم..

وخفض عينيه بخجل ليسأله..

– ماذا تعني مرزوق؟ تحدث بصراحة ولن أغضب..

– لطالما احترمت رغبتك في الحفاظ على خصوصية مرضاك وحتى أنك لم تكن تستعين بممرضة أثناء كشفك على السيدات واكتفيت بوجودي في الجوار لكنك كنت تترك باب غرفتك مفتوحًا منعًا للشبهات.. كنت تحافظ على أخلاق ومبادئ مهنتك وتحترم مكان أكل عيشك لكن ما يحدث حاليًا عار عليك وعلى القسم الذي أقسمت على احترامه..

وبكل هدوء عاد لالتقاط ممسحته وإكمال عمله ببساطة شديدة وكأنه لم يكن يؤنبه كوالد غاضب منذ لحظات...

***

هل هي تتعمد جعله ينتظر؟ موعدها فات وقته منذ ساعتين وهو مازال ينتظر كاد يفقد الأمل تمامًا في رؤيتها وبدأ عقله في العمل... هل ضربها الشيطان مجددًا؟ أم هي تتعمد إثارته بغيابها؟ في المقابلة القادمة سيلح عليها لمعرفة عنوانها وكل المعلومات عنها.. هذا ليس عدلًا أبدًا أن يكتوي بنارها وهي تقابله بالبرود... فجأة فتح الباب بقوة لتدخل بطلة أفكاره منه.. هب لمقابلتها وهاله أن يجد شفتيها

متورمتين ممزقتين وساعدها الأيسر ملفوف برباط طبي.. ودون أن يتوقف للتفكير كان يحتويها بين ذراعيه ويضمها إليه وهي استكانت تبحث عن الأمان...رؤيته لمنظرها المشوه جعلته يشعر بألم حقيقي في أحشائه... لأول مرة يلمس امرأة متزوجة لكنه كان لا يستطيع إيقاف نفسه والخطيئة الآن ليست خطيئة فهي تحتاجه بشدة وعلاقتهما ستصحح مسار حياتها... ومرزوق المستنكر بشدة أغلق الباب وهو يهز رأسه بأسف لكنه لن يهتم لرأي مرزوق...

سارقة قلبه كانت تبكي بحرقة وعليه أن يطبب جراحها بلطفه وبعنايته.. قادها إلى أريكته المميزة وأجلسها برفق... وهو يلعن بصوتٍ عالٍ ذلك الحقير الذي ضربها بعنف هكذا... شهقت وهي تقول من وسط عبراتها..

– أتيت بمعجزة يا ياسر... تحاملت على نفسي لأراك.. كنت سأموت لو لم أراك اليوم..

كز على أسنانه حتى كاد يحطمها وهو يقول...

– سأقتل ذلك الحقير سراب.. سأقتله حتى لو كان ذلك آخر عمل أفعله في حياتي..

ترجته بذعر...

– لا.. أنت لست ندًا له أبدًا ارجوك ابتعد عنه..

دمائه كانت تغلي..

– كيف سأتحمل سراب؟ هتفت بندم...

– ستجعلني أندم أنني ورطتك في هذا... سأرحل يا ياسر ولن تراني مجددًا...

شعر بالأرض تميد من تحت قدميه.. كان وكأنه يقف في وسط البحر والجزر يسحب الماء من تحته ليتركه يشعر بالدوار وعدم الاتزان... شعور بالفراغ والكآبة احتله.. كيف ستكون حياته بدونها؟ إلى الآن لا يعلم كيف أحبها بمثل تلك السرعة لكنه فعل...

سمعها تقول بيأس..

– ياسر أنا لم أعد أريد أن أحكي عن زواجي.. فقط أريد الرحيل..

أغمضت عينيها ودفنت وجهها بين كفيها.. واستمرت في البكاء..

بسبب اضطراب مشاعره وتهوره علاقتهما اختلفت عن شكل العلاقة الطبيعية بين الطبيب ومريضته ولذلك سترحل.. يجب أن يستعيد شكل العلاقة السابق وإلا سيفقدها إلى الأبد... ترجاها بألم..

– لا سراب أرجوكِ أن تبقي وتخبريني كل شيء عن زواجكِ أريد أن أعلم كل التفاصيل سراب مهما إن كانت مؤلمة.. تجاهلي طلبي لصداقتكِ ولنبدأ من جديد كطبيب ومريضته... وضع يده برفق على كتفها يطمئنها لكنها جفلت بشدة وانكمشت على نفسها وارتعشت لدرجة أن رجفتها انتقلت إليه عبر جسدها وفتحت عينيها وهي تنظر إليه برعب..

رعبها مزقه إلى أشلاء فطمئنها..

– هذا أنا سراب لا تجزعي... اهدئي واخبريني كل شيء..

– حسنًا ياسر سأحاول لكن عدني بأن تبتعد عن طريقه..

– أعدك سراب طالما لن تختفي..

...

تنحنحت كثيرًا وهي تصفي صوتها، اخبرته أنها ستعود بذاكراتها إلى الماضي.. ستبدأ منذ زواجها بالشيطان عندما كانت في الثامنة عشر..

– ياسر.. استمع بعقلك لتستطيع مساعدتي فقلبك لن يفيدني كثيرًا.. آخر ما أريده هو أن تتهور وتقتله... استمع جيدًا واعلم إلى أي مدى جنسكم حقير قذر أتمنى لو يختفي بالكامل من على وجه الأرض...

# 4 | العشق المحرم

أحيانًا يكون الاختيار صعب.. عندما تضطر أن تختار بين جحيمين فالأفضلية لمن ستكون؟ هكذا كانت سراب.. والدها الحقير باعها لرب عمله الأحقر منه.. عديم الشرف لم يهتم للمبادئ يومًا والحقير كان يعلم ذلك.. كان يعلم أنه اشتري دمية جنسية لممارسة شذوذه عليها ومثل هذا الدنيء لن يهتم لعذريتها أو لشرفها.. كان يعلم جيدًا لماذا باعها له والدها وقبل.. وهي قررت استغلال الصفقة لصالحها فانتقمت من الحقير وهو أكيدٌ من أن دور الشيطان في الانتقام قادم.. أصبح يفهم شخصية سراب جيدًا.. إنها قوية تمثل الخضوع حتى تكسب الوقت ثم تضرب ضربتها..

هو لا يلومها أبدًا فالأشكال القذرة التي واجهتها في حياتها علمتها ذلك وهم يستحقون..

استمع إلى تفاصيل مرارتها التي لو كانت تسمح له بتدوينها لكان أنهى كتاب عن البؤس والحقارة واستغلال النفوذ... كانت حروفها مبتورة وكلماتها غير واضحة بسبب جرح شفتيها وبسبب مرارتها لكن كلامها اخترق حاجز عقله.. في البداية كانت تحكي بخجل ثم عندما اندمجت نست خجلها.. وألمها غطى عل أي مشاعر أخرى...

– في البداية لم أكن أعلم ماذا يريد مني... بعد صفقتنا الجهنمية وسجن الحقير تركني لشهور أقيم بمفردي في غرفة نوم منفصلة... كنت سعيدة جدًا بهذا الترتيب حتى بدأت أشك في بعض التصرفات الغريبة وتدريجيًا فهمت كل شيء...

كنت استمع إلى التلميحات من الخدم ونظرًا لعدم خبرتي وقلة تعليمي كنت كالبلهاء فلم أعطي الأمور الكثير من الاهتمام.. استمتعت بحريتي وبعودتي للتعليم الثانوي والرفاهية التي وفرها الزواج لي بدون أي مسؤوليات أو متطلبات...

حتى أصبت يومًا بألم شديد في بطني.. كنت أتلوى من الألم وهو كان يمنع تواجد الخدم في جناح النوم أو حتى الطابق العلوي بأكمله في الليل.. خرجت من غرفتي لغرفته لأطلب منه مسكنًا ما أو رؤية طبيب... اعتقدته نائم فلم أقرع الباب ودخلت مباشرة لأفجع بما رأيت... صمتها طال وهو انتظر.. كان يعلم ماذا رأت لكنها يجب أن تعبر بكلماتها هي عن مأساتها لكن يبدو أنها لن تتجرأ وتكمل من تلقاء نفسها.. لا ضير من بعض المساعدة..

– ماذا رأيتِ في غرفته سراب؟ قالت فورًا وبقرف شديد كأنها ترغب في مشاركة أحد معها في سرها اللعين..

– رأيته يجبر غريب على ممارسة الشذوذ معه.. ردد..

– غريب؟ أجابته بعصبية..

– نعم غريب الحارس الشخصي الخاص بي.. وهذا ليس اسمه الحقيقي بالطبع.. سألها مجددًا بطريقة روتينية حاول أن تبدو رسمية..

– كيف كان يجبرهم؟ لماذا ضحاياه كانوا يستسلمون؟

نظرت إليه بسخرية..

– إلى الآن أنت لا تدرك من هو زوجي؟ غريب كان مجرد مجند مسكين لم يتخطى عمره التاسعة عشر عندما بدأ الخدمة عند الشيطان.. هل كان ليصمد أمام جبروته؟

وفي النهاية أنا أعلم انه توجد قاعدة في الطب النفسي وعلم النفس مفادها أن التجربة الجنسية الأولى هي من تشكل كل الهوية الجنسية للشخص بعد ذلك أليس كذلك؟

بالطبع إنها قاعدة معروفة الاستثارة الجنسية الأولي عادة تحدد الميول الدائمة بعد ذلك.. لكن هل تقصد أن غريب أصبح شاذًا مع تكرار إجبار زوجها له؟ بالطبع صحيح أن الاستثارة الأولى لها دور لكن يتبقى الأهم وهو الذي يحدد الميول الدائمة ألا وهو شخصية المستثار.. كلما كانت الشخصية سوية كلما قل نسبة تأثرها بالإثارة الجنسية الخاطئة المنافية للطبيعة البشرية وميلها للممارسة الطبيعية مهما أن كانت طبيعة المؤثر وقوته ومن الواضح أن سراب تقرأ كثيرًا في علم النفس... إنها تجعله هو المريض وهي المعالجة.. لابد وأن يفرض شخصيته كطبيب..

– نعم سراب ما تقولين صحيح إلى حد ما، لكن هذا ينحسر أمام العقل الواعي الذي يميز بين الحرام والحلال.. بين شهوة الحيوانات والشهوة الطبيعية للبشر.. إن كان ما تقولينه صحيحًا في المطلق ومع كل الناس لكنا أقرب إلى الحيوانات منا إلى البشر.. من يستسلم يستسهل ويلغي عقله ولا يكون لديه أي وازع ديني أو خوف من عقاب الله عز وجل.. شعر بلهجتها تتبدل إلى السخرية...

– هل أنت مسلم حقيقي ياسر؟ بهت من سؤالها.. قال وهو يتلعثم..

– بالطبع..

أعادت سؤالها بشكل أوضح لتصيغه بطريقة تحرجه ولا يتهرب من الإجابة..

– أنا لا أسألك عن ديانتك المدونة في هويتك الشخصية.. أنا استعلم عن درجة التزامك وتقربك من الله.. عن ضميرك واستقامتك... إن لم تكن مستقيمًا تمامًا إذًا فليس لديك أي حق لإصدار الأحكام ونصب المشانق.. وإن لم تعايش ما عايشناه نحن فلا تنتقد أنا هنا للفضفضة فقط وليس لتصحيح المفاهيم عندما أريد التوعية الدينية سأذهب إلى الدروس والمحاضرات وسأتلقاها من مصادرها...

إنها من تعريه أمام نفسه... تجعله يصمت ولا يجد الكلمات لأول مرة في حياته... مهنته تعتمد بشكل تام على الكلام وسراب أخرسته..

– حسنًا دور غريب لم يأتي بعد لنعد إليكِ أنتِ.. ماذا فعل حينما علم أنكِ شاهدتيه؟ مطت شفتيها وجعدت أنفها بقرف وهي تجيب...

– في البداية لم يفعل أي شيء وظل يتجنبني لأيام ثم بدأ في ضربي بوحشية بدون أي سبب

وعندما طلبت الطلاق احتجزني في القبو لفترة لا أعلم كم كانت بالتحديد... حتى تراجعت عن طلب الطلاق فأعادني لغرفتي وسمح لي باستكمال دراستي فالتحقت بكلية الآداب عن طريق الانتساب ومع معرفتي بما يخفيه لم يعد هناك أي داعٍ لحذره.. أصبحت أراه وأسمعه علنًا ولم يكن يجرؤ أحدًا على الاعتراض.. وأصبح يمارس شذوذه في غرفتي وكأن حضوري كان يثيره بزيادة.. علمت أنه تزوجني كواجهة تخفي ميوله المنحرفة بعدما فاحت سمعته.. وزاد اشمئزازي عندما أصبح يستقطب الصبيان نظير أموال..

كان يعدهم بالأموال والثراء وكان ينفذ فعلًا وكلما ظهر اشمئزازي على وجهي كان يتفنن في ضربي لكني لم أكن أهتم لضربه حتى بدأ ينجذب إلي.. لست أدري ما جعله يغير ميوله من شذوذ الرجال إلى شذوذ النساء في كل مرة كان يغتصبني فيها كنت أخطط للانتقام ومازالت أخطط إلى الآن...

الكراهية قد تدفع بها إلى القتل.. صحيح أن زوجها يستحق لكن هي في النهاية ستصبح قاتلة.. لو كانت العدالة ستتحقق كما ينبغي، إذًا فلابد وأن من ينال شرف قتله يخلد بطلًا ولكن القاضي له الأدلة والبراهين ووقتها سيكون قتلًا عن سبق الإصرار والترصد.. ربما لن يصدق ما ستقصه عليه وعن بشاعته في معاملتها فالمظاهر خادعة والشخصيات الهامة تستطيع حماية نفسها جيدًا.. لابد وأن يحميها من أفكارها لكن أولًا لابد وأن يعلم ماهي تلك الأفكار وما هي حدودها تمامًا... سألها بأسلوب مباشر..

– وكيف تخططين للانتقام سراب؟ ربما تفكرين في قتله؟ قهقهت بصوت عالٍ أثار دهشته.. كيف تستطيع الضحك في مثل هذه الظروف... مالت إليه تهمس في أذنيه بنعومة...

– هناك طرق أخرى للانتقام غير القتل.. صدقني ياسر لو أردت قتله لفعلتها منذ زمن.. اخبرتك من قبل المعتدي يكون جبانًا رعديدًا وأنا أذكى من ذلك..

سألها بفضول..

– إذًا كيف تخططين للانتقام؟

– أنا لدي سياسة النفس الطويل وفضحه وإظهار حقيقته القذرة سيكون طريقة مثيرة جدًا للانتقام أليس كذلك؟

«من سجنت والدها بدافع الانتقام لن تكتفي فقط بفضح الشيطان الذي سجنها في الجحيم».. بالطبع هو لا يصدقها لكن هل من الحكمة مواجهتها بذلك.. وربما يكون يعطيها دلالات إيحائية وينمي لديها فكرة قتله لو أصر على حشر موضوع القتل في رأسها.. كمريضة تختلف ثلاثمائة وستون درجة عن أي مريضة عالجها من قبل.. يجب أن يكون حذرًا منتبها لكل كلمة وإلا.. سيخرج من تلك المعضلة وسيشتت انتباهها.. سألها بذكاء..

– وكيف هي علاقتكما الآن؟ نظرت إليه بغموض بعض الوقت ثم قالت...

– حذرة مليئة بالخطر والترقب.. مثيرة للاشمئزاز.. هو يعلم أني خطيرة صدقني.. ويندم بالتأكيد على توريط نفسه في علاقة معي..

– وهل يوجد خلاص منها يومًا ما؟

– بالتأكيد.. طالما نتنفس يوجد الأمل.. استغرقني الأمر ست سنوات للتخلص من الحقير وربما مع الشيطان الأمر سيستغرق مدة أطول.. لكن في النهاية سأتخلص منه.. محيرة غامضة جريئة ذكية.. تصبر نفسها وتخطط بهدوء لكن لسعتها والقبر كما يقولون..

– حسنًا سراب سأكون أكثر وضوحًا في أسئلتي.. أنتِ تتعمدين اللف والدوران.. متى كانت آخر مرة أجبركِ فيها على ممارسة الشذوذ... أجابته بوقاحة..

– أنا أدفع لك لأتحدث كما يحلو لي.. لن يجبرني رجل مجددًا على فعل ما لا أريده... اعتبرها نهاية الجلسات.. إلى اللقاء دكتور للأسف سمعتك ليست في محلها... اعد النظر في طريقة تعاملك مع مرضاك وإلا لن تستطيع سداد أقساطك الضخمة... وبسرعة الصاروخ كانت

قد اختفت من أمامه لتتركه مشدوهًا... ربما فعلت الصواب برحيلها.. بضع دقائق أخري في حضورها وكانا سيتبادلان الأماكن ليجلس هو على الأريكة ويبوح لها بكل أسراره... لكن لحظة.. كيف عرفت عن أقساطه؟

***

«الأيام لا تمر بدونها.. فالليالي عجاف والأرق صديقي والليل طويل ولقياها الدواء.. سرابٌ غيرت أيامي وروت قحط سنواتي.. عشقها تكفيرٌ لذنوبي وآخر شطحاتي وجنوني..»

هل هي النهاية فعلًا؟ أكانت حلمًا جميلًا أم هلاوس راودتني؟

أكاد أجن لا دليل على وجودها.. لم أسجل اسمها مطلقًا في أي كشوف أو ملفات.. ولم أدون ما كانت تقوله أو أصف لها وصفات علاجية.. حتى مرزوق لا يساعدني فقط يبتسم بإشفاق ولا يتحدث كلما ذكرتها أمامه.. أخبره مرة بإشفاق.. «احمد الله أن القضمة التي أخذتها لم تكن مسمومة قضمة التفاح لذيذة لكن قضمة الثلج مميتة»..

لقد تذوق الفاكهة المحرمة ولم يشبع منها... ولن يشبع منها مطلقًا ستظل لحظاتهما وهي بين ذراعيه تعذبه وتؤرق حياته... شهران طويلان مرا منذ آخر لقاء بيننا.. يومها لمست السحاب وطرت فوق الغيوم احتويتها بين ذراعي ثم اختفت.. ليتني لم ألمسها أبدًا أو أتنشق عطرها الغجري..

دخول مرزوق الغير مرغوب فيه قطع لحظات أحزانه..

تطلع إليه بجدية وهو يقول..

– دكتور.. هناك الكثير من المرضى يرغبون بتحديد مواعيد ومفكرتك مزدحمة للغاية.. ألم يحن الوقت بعد بإدخال يوم الثلاثاء عصرًا إلى جدول المواعيد؟ لا لن يقطع آخر أمل في عودتها أبدًا.. لالا يمكن أن يكون ما يشعر به من طرف واحد فقط.. لا يمكن.. نظر إليه بعتاب ليقول..

– لا مرزوق.. إلا الثلاثاء عصرًا.. أنا طاوعتك وأعدت الثلاثاء إلى الجدول لكن اترك لي العصرية بدون أي مواعيد..

– حسنًا سيدي كما تريد.. دكتور هل تسمح لي بالتدخل؟

وكالغريق يتعلق بقشة نظر ياسر إليه برجاء وأراد أن يهتف «أرجوك مرزوق تدخل وساعدني فأنت الوحيد الذي يمكن أن يؤكد هلاوسي أو ينفيها».. هل من الممكن أن تدوم سيجارة حشيش واحدة لشهور مهما أن بلغت جودتها؟ منذ يوم زيارة سراب الأولى وهو لم يقرب الحشيش.. أراد أن يكون واعيًا منتبهًا لكل كلمة تقولها.. ألم يخبر نفسه من قبل «إنها من تعالجه وليس هو» ها هو الآن أقلع عن التعاطي بسببها... بدلًا من ذلك تصنع الجدية وقال..

– ماذا تريد أن تقول مرزوق؟

حان الآن وقت رد الجميل بالنسبة إليه، عمله كتمرجي خاص به وحمايته لم تكن هي رد الجميل المناسب هذا كان عملًا ويتقاضى عليه أجرًا وياسر أجزل له العطاء.. رد الجميل سيكون في هيئة نصيحة خالصة لوجه الله تعالى.. هو يعلم أن ياسر ليس ذلك الشيطان الذي يبدو عليه.. الخير بداخله لكنه يقاومه في سبيل ملذات زائلة لا تساوي الخلود في جهنم بسببها..

«حُفَّتِ الْجَنَّةُ بِالْمَكَارِهِ، وَحُفَّتِ النَّارُ بِالشَّهَوَاتِ».

اقترب من مكتبه... وقال باهتمام أبوي..

– أنا سأخلع الآن ثوب المرض وسأحدثك كأب.. لماذا يا بني أنت بعيد بتلك الصورة المخزية عن أسرتك؟ العائلة هي العزوة الحقيقية والسند.. والدتك تحتاجك ولا أعني المساعدة المادية ولكن أعنى احتياجها لولدها البكري.. احتياجها لاحتضانك والحديث معك.. كل أم تكون فخورة عندما يصبح أحد ابنائها طبيب وأنت تحرمها من حقها في الفخر بك.. عندما تتألم تحتاجك لتكون إلى جوارها وتصف لها العلاج.. هي لا تعي التخصصات أو ما شابه.. أنت طبيب بالنسبة إليها وتستطيع علاجها مهما أن كان مرضها.. واشقائك.. إنهم نعمة من الله عز وجل.. في يومٍ ما سيكونون هم كل جيشك المخلص...

أنت تسعى خلف السراب وتترك اليقين.. الحب بيد الله سبحانه وتعالى أنا أعلم ذلك لكن وجه حبك لمن يستحق... وانأى بنفسك عن العشق المحرم يا بني.. أنا لحقت نفسي ولم يفتني قطار التوبة ولا أريد أن يرحل القطار دونك فوقتك يتناقص..

وبدون إضافة المزيد غادر الغرفة في صمت.. ها أنت تعلم يا مرزوق أن الحب ليس بيدي.. إذًا لماذا تعاتبني؟ أعي كل ما تقوله جيدًا لكن الأمر ليس بيدي.. عشقها المشنقة التي سوف تخنقني.. وها هي اختفت وتركتني بلا عنوان.. أتوه بين الوديان لأبحث عن سراب يطمئنني.. اختفائها يترك ألم شديد في معدته... لماذا اختفت سراب؟ هل لتعاقبني أم منعها الشيطان؟ الهواجس السيئة بدأت تحتل رأسه.. هل قتلها ذلك الحقير؟ بالتأكيد لم تقتله هي فالجرائد لم تنشر مؤخرًا خبرًا عن وفاة مسؤول.. اقترب من الانهيار وأفكاره امتلأت بالسواد.. مقاومته للحشيش انتهت تمامًا فأخرج سيجارة من ذلك الصنف الجيد (قرين

الشيطان) الشهير الذي يدخره للشدائد وهم بإشعالها... سيختفي خلف دخانها الكثيف ولن يري أبعد من أنفه.. التفكير عدو الحياة وراحة البال.. لسنوات عاش هانئ البال لأنه لم يكن يفكر.. كان أكيدًا من أنه لم يشعل سيجارة الحشيش بعد.. إذًا فالتي فتحت الباب بنفس فستانها الأحمر هي سراب فعلًا... يا للشيطان في عز ضعفه تأتي إليه بفستانها المثير ذلك وبكدمات أشد ضراوة من أي كدمة زينت وجهها سابقًا.. الكدمات كانت تمتد على طول جسدها الرائع.. أي حقير قاسي القلب يستطيع أن يفعل بها ذلك...!

مقاومته انهارت... فلتذهب أخلاقيات المهنة إلى الجحيم.. منذ متى أساسًا وهو لديه احترام لأي أخلاقيات؟

في لحظات كان يخلع كل مبادئه وتعقله ويلقيهم جانبًا ويأخذها بين ذراعيه إنها الجنة والنار.. نعيم قربها وجهنم عاقبتها.. شفتاها اللتان كانتا تدعواه للخطيئة كانتا تعلمان جيدًا أنه لن يقاوم... وأريكته الحبيبة التي طالما أعجب بها استخدامها الآن سيكون مختلفًا تمامًا.. سيمارس عليها الحب ليخلد ذكرى لقائهما إلى الأبد..

قدر له أن يكون هو أول من يأخذها إلى المتعة التي لم تشعر بها من قبل، رجل حقيقي يعلمها الحب حتى ولو الحب المحرم لكنه حب.. كان ينهل من شهدها وهي تستجيب.. طريق اللاعودة بدأ...

«عشقها سيكون آخر ذنوبي والخلاص من كل آثامي وشروري».

من منهما الغاوي؟ هذا أمر يستحيل معرفته فكلاهما خاطئ وكلاهما غاوي...

من العجيب ألا تجد مجني عليه في حالتهما...

الانقياد السهل في مستنقع الخيانة كان آخر مسمار في نعشه... شهيد العشق المحرم...

فجأة سراب تخشبت ومنعت تقدمه... نهضت ولملت ثوبها وارتدت معطفها الخفيف من قماش التويد بلون رمادي داكن.. ووضعت وشاحها الأحمر حول رقبتها... سيدة السراب بلا منازع لكن حزينة.. لماذا لم تسمح له بإسعادها؟ قالت بضعف مزق قلبه..

– ليس هنا ياسر.. لا أستطيع... لم يكن أمامه بعد قرارها الحاسم سوى النظر إليها بإحباط.. هو يعلم جيدًا أنها معها كل الحق...لكن ما تفعله الآن تعذيب جسدي.. أراد أن يهتف.. «إذًا أين؟» فقط سمي المكان.. وكأنها تقرأ أفكاره أكملت بتوتر..

– يوجد مكان جيدًا جدًا ويتمتع بكل الخصوصية اللازمة...

بكل بطء وإثارة فتحت حقيبتها وأعطته منشورًا ورقيًا دعائيًا..

البروشور كان يصف فندقًا يبعد عن القاهرة بخمسين كيلومترًا في طريق الواحات.. اللقطات الساحرة التي التقطت له وحدها كانت كافية لإغرائه حتى بدون الدعاية المميزة التي يحملها.. (فندق كازابلانكا) بوابتك إلى الرفاهية والخصوصية.. اختيار الصفوة تمتع لدينا بكامل خصوصيتك.. مدخل خاص لكل نزيل.. نحن نضمن الخصوصية التامة لكل ضيف من ضيوفنا.. حتى أنك لن ترى أي نزلاء آخرين طوال فترة إقامتك.. فندق الكازابلانكا بنجومه السبعة ورفاهيته المطلقة مناسب لقضاء شهر العسل..

العمل كالحمار ليسدد أقساطه جعله متأخرًا جدًا عن مواكبة تطور الرفاهية لم يعطي نفسه أي راحة منذ سنوات أو يغادر

للسياحة.. دهش للغاية من وجود مثل هذا المكان السري والرائع في مصر.. وستهبه سراب نفسها هناك بلا أي مقاطعة أو تردد فقط المتعة الأبدية والنشوة المسكرة.. إذًا فلتسقط قوانين العالم مجتمعة ولتحيا سراب رفع عينين ملهوفتين إليها وهو يسألها بلهفة قاتلة..

– متى؟

أجابته بابتسامة واسعة وهي تدس المنشور الإعلاني في حقيبتها مجددًا..

– الخميس القادم..

***

# 5 | كازابلانكا

فقط يومان يفصلاه عن السير فوق السحاب.. ضميره عاد لسباته فإغراء امتلاك سراب كان أقوى بكثير.. منذ رحيلها في العصرية وهو يستعيد ما حدث بينهما.. استعادة مئات المرات وفي كل مرة كان يزداد شهوة وإثارة شهوته ألغت عقله تمامًا... خطتها كانت في غاية البساطة سوف يلتقطها يوم الخميس القادم من على الطريق الدائري... ستنتظره على بداية طريق الواحات.. فقط أخبرته «ستجدني هناك بسهولة».. مازالت لا تخبره أي تفاصيل عنها.. تعده بالجنة مع أنه فعليًا ليس لديه سوى السراب... حدسه السيء عاوده بقوه لكن النداهة تسلبه عقله.. لأول مرة منذ فترة طويلة يشعر برغبة قوية في زيارة والدته من تلقاء نفسه بدون استدعائها له... ليس ذلك فقط بل سيقضي الليلة بأكملها في بيت أسرته.. زر استدعاء مرزوق السحري ينجده كعادته...

– مرزوق.. كم مريض لدينا اليوم؟ أجابه فورًا...

– اليوم يوجد لديك موعد مع المهندس حمزة يليه موعد مع السيدة جميلة...

– حسنًا مرزوق أريدك أن تجهز لي عشاءً فاخرًا لستة أفراد اصطحبه معي رتب شيئا فاخرًا ولا تتردد في المصاريف.. الأفضل

مرزوق.. سأقضي الليلة في منزل العائلة... وغدًا الغي جميع مواعيدي.. سأعود يوم الأحد.. أنا في إجازة حتى الأحد هل تفهمني مرزوق؟

ابتسم بانشكاح ليقول بدعم..

– خيرًا فعلت دكتور... استمتع بعطلتك.. واترك تحضير الاحتفال لي.. ثم أكمل بجدية..

– المهندس حمزة على وشك القدوم.. سأدخله فور وصوله.. بالإذن دكتور...

قراره بقضاء الليلة مع أسرته أرسل ذبذبات الاطمئنان لكل جسده.. مهما أن كبر في العمر يظل حضن الأم هو الملاذ والملجأ الآمن.. سيظل لديها حتى موعد سراب صباح الخميس...

اطمئنانه انطبع على وجهه ومقابلات المرضى كانت سلسة بسيطة ليت الحياة دائمًا بمثل تلك البساطة.. مرزوق كان سعيدًا وهو يطلب له طعام العشاء وتفنن في اختيار الأفضل... لطالما كان يلجأ إليه في تحضير عشاء لياليه الحمراء في شقته العلوية واليوم لأول مرة مرزوق كان يستجيب له وهو سعيد ولولا أن جميله يطوق رقبته لكان تبرأ من خدمته منذ زمن طويل...

أراد البكاء حينما لمس سعادة والدته الغامرة بقراره في المبيت لديها عندما اتصل ليخبرها... أرادها أن تجمع اشقائه للقائه وكم كان يشعر بالإحراج حينما اكتشف أنه لا يحتفظ بأرقامهم على هاتفه النقال... أي شقيق كان هو خلال تلك السنوات؟ سيعوضهم من الآن وصاعدًا.. دائمًا كان يعطيهم أموال.. لكن لم يهديهم يومًا أي هدية شخصية يتذكرونه بها..

– مرزوق من فضلك.. هل جهزت الحقائب كما طلبت منك؟

– بالطبع دكتور... حزمت كل ملابسك الجديدة التي لم تستعملها مطلقًا في حقيبة وحزمت بعض الأغراض الشخصية التي تكفيك لعدة أيام في حقيبة أخرى...

– اشكرك من كل قلبي يا مرزوق.. لا أدري ماذا كنت لأفعل بدونك..

– كنت ستحضر حقيبتك بنفسك... تزوج دكتور.. أدعو الله ليل نهار أن يرزقك الحلال ويكفيك شر الحرام وأهله... من الجيد جدًا أن تجد من يحبك من قلبه وبدون رابطة دم.. نظر إليه بعشم وقال..

– إذًا واصل على الدعاء لي يا مرزوق فأنا أحتاج إليه بشدة...

***

دخول مرزوق الهادئ ليخبره عن حضور المهندس حمزة حسب موعده قطع استمتاعه بموسيقى كورساكوف.. مزاج سراب الناري تماشى مع اختياره لسيمفونية شهرزاد مهما أن عشق الجنس والشراب والمخدرات لكن عشقه الحقيقي سيظل للموسيقى الراقية التي تجعله يشعر بالنشوة ولكن بنظافة... ليته اختار دراسة الموسيقى بدلًا من الطب فهي أيضًا علاج لآلام النفس وهفواتها...

المهندس حمزة من أكبر أصحاب شركات المقاولات.. عصامي بنى نفسه من الصفر ليصبح صاحب شركة أنوار العقارية المشهورة.. اكتشف منذ سنوات أنه مصاب بالهوس.. (الهوس) أحد قطبي الاضطراب الوجداني وأقلهما في السيادة على مدار العام وفى حالة حمزة الأمر محير قليلًا فهو لا يعاني من اكتئاب يتناوب مع هوسه فقط في أيام محددة من العام يصيبه الهوس ومع عبقريته الشديدة

ودماغه الهندسية العالية يصمم أروع أعماله، حمزة كان يتحكم في مرضه بصورة مذهلة.. لو سمح لمرضه بالسيادة مع عبقريته الفطرية لوصلت شطحات أعماله عنان السماء لكن قوة شخصية حمزة لجمت مرضه وتركته مقيدًا يظهر على استحياء في أوقات محددة من العام وحمزة كان يعلم جيدًا بداية انتكاسته فيعتزل الناس ويركز على العمل حتى تمر الأزمة...

رحب به لطف.. منذ البداية وحمزة رفض تمامًا استخدام أريكته كان يأتي فقط من أجل أن يثبت لنفسه أنه مازال مستبصرًا بمرضه ويسعى للعلاج.. والأريكة تشعره بالضعف والاستسلام وهو أبعد ما يكون عن ذلك سيقهر حتى مرضه..

ويأتي أيضًا من أجل أن يسمع الطبيب المتخصص وهو يخبره..

– الاضراب الوجداني هو اضطراب مزاجي ومع عبقريتك الفذة في الهندسة أبشرك ستأخذ جائزة نوبل في الهندسة يومًا ما...

وليجيبه بتصميم..

– سأحصل عليها بالتأكيد...

***

لماذا اليوم أعطى موعدًا للسيدة جميلة؟

إنه غبي لرؤيتها اليوم بالذات.. لماذا لم يعطي موعد اليوم لمريضته الرقيقة عنان لتعادل تأثير النساء الخاطيات...

إنها مثال حي على العطاء... وشرف لكل بنات جنسها..

عنان تراجعه بسبب اكتئاب شديد وسبب اكتئابها هو وفاة زوجها الحبيب بعد زواج دام لأشهر فقط.. قبل الزواج اكتشفت أن حبيبها مريض بالسرطان ومع ذلك رفضت تركه وظلت إلى جواره وأنفقت كل ما تملك على علاجه.. كانت تعلم أن حالته ميؤوسا منها لكنها كانت فقط تريحه من آلامه وظلت معه تسانده حتى استرد الله وديعته وعلى الرغم من مرور سنوات على وفاته إلا أنها مازالت تحمل له حنينًا طاغيًا واشتياقًا لا يوصف... وعلى الرغم من تجنبها إجابته كلما سألها إلا أنه يعتقد أنها مازالت عذراء إلى اليوم فبالتأكيد العلاج الكيماوي المكثف الذي كان يتلقاه زوجها من قبل الزواج لم يكن يسمح له بمزاولته حياته الطبيعية... لتجيبه بخجل ردًا على سؤاله..

– لماذا تسأل ما الفارق؟ أنا أحببته بكل حالاته وفي كل حالاته حتى في مرضه..

هكذا هو الحب النقي الخالي من المطامع والشهوات.. بالطبع هو لن يطمع ليطلب حبًا بمثل هذا النقاء لأنه لا يستحق لكن هل يومًا ما ستحزن إحداهن لوفاته وتتذكره حتى كل فترة؟

وعلى الرغم من أن جميلة تراجعه بسبب تأنيب الضمير وشعورها بالذنب إلا أنها تظل خاطية زانية لعينة؟ لكن من هو ليحكم عليها؟ هل كل نساء الكون خاطيات؟ لا بالطبع.. في الخطيئة يتساوى الرجال والنساء فكل رجل خاطي زنا بامرأة وكل امرأة غوت رجل كان هذا الرجل لديه النية والاستعداد.. لكن تظل البراءة والنقاء متواجدتان من حولنا بقاء الأرض لكن هو لا يستحق أن يقابلهما... الطيور على أشكالها تقع...

لقد قطع شوطًا كبيرًا في علاج جميلة... كان السبب الرئيسي لمراجعة جميلة لعيادته هو إصابتها بالخرس المفاجئ وتدهور قدراتها التواصلية مع الجميع.. وبعد اللف على كل المستشفيات لم يجدوا سببًا واضحًا لمرضها فبالتالي كانت الخطوة التالية هي زيارة الطبيب النفسي...

– كيف حالها اليوم؟

في العادة تأتي جميلة مع زوجها رجل الأعمال الشهير يسري الملواني.

إنها سيدة راقية في الخمسين من عمرها لديها ولد وحيد في أواخر العشرينات من عمره...

منذ بضعة سنوات أصيبت باكتئاب شديد تطور لتمتنع عن الكلام تمامًا وفشلت كل المحاولات في جعلها تنطق مجددًا...

الشعور بالذنب قوة هائلة وحينما تسيطر على الانسان يعيد الكثير من حساباته.. البعض تجعله أفضل والبعض لا يتحملها فينهار وفي النهاية الفيصل هو قوة الذنب وشخصية المذنب..

– حسنًا سيد يسري كيف حالها الآن؟ ابتسم بسعادة واضحة..

– أفضل يا دكتور أفضل كثيرًا نحمد الله على أنها أخيرًا تحدثت بعد سنوات من حرماننا من صوتها العذب...

– الحمد لله.. لكن كما تعلم حديثها معي بمفردها أفضل.. هل تتكرم بالانتظار خارجًا...

نهض على مضض.. ربت على كف جميلة بحب... وغادر إلى الخارج تاركًا زوجته في جلسة مصارحة نارية وتاركًا الباب مفتوحًا كالمعتاد ليراقبهما من بعيد وقلبه يدعي بسلامتها..

– كيف حالكِ اليوم سيدتي؟ اومئت برأسها في حركة تدل على أنها بخير... اعترض بلطف...

– ألم نتفق على أن تحاولي الكلام كلما استطعتِ؟

كلماتها بطيئة متثاقلة تنطقها بصعوبة...لكن حتى هذا تقدم.. في البداية كانت لا تتحدث مطلقًا.. أجابت بصعوبة..

– الحمد لله..

من الحالات التي تستحق التوثيق.. لمدة شهر وهو فقط يتحدث وهي تستمع.. كانت حياتها واضحة بلا أي عثرات أو ألغاز أو طفولة بائسة..

إذًا أين كلمة السر ومفتاح مرضها... كانت تستمع لكل كلامه بدون تعبير إلا عندما يحدثها عن ولدها... كانت تنهار في البكاء... وفي النهاية تحدثت أخيرًا...

في بداية زواجها كان زوجها يتركها لفترات طويلة ويسافر إلى الخارج للعمل.. وهي كانت تشعر بالملل وترجته كثيرًا أن يأخذها معه.. ولشدة حب زوجها لها كان يشفق عليها من التنقل الكثير وحياة عدم الاستقرار التي كان يحياها في سبيل لقمة العيش وكان يصر على إقامتها في منزلهما وكان يشقى لتوفير الحياة الكريمة التي تستحقها من وجهة نظره لكن في لحظة ضعف استسلمت لشيطانها وخانت زوجها مع صديقه لكنها ظلت تعاني من الذنب وعلى الرغم من توبتها واستقامتها لسنوات إلا أنها كلما نظرت إلى ولدها تعاظم لديها الشعور بالذنب فهي إلى الآن غير متأكدة من هوية والده الحقيقي...

...

والطريق الوحيد الذي جعلها تتكلم أخيرًا هو مصارحته لها بأنها هكذا ستفتح باب جهنم على ولدها الوحيد وستهدم حياته المستقرة إن انكشف المستور وسيدفع هو ثمن خطيئتها وقد سترها الله المهم أن تكون توبتها صادقة والله غفور ستير رحيم..

وصمت يعيد ترتيب أفكاره هو وترتيب ذنوبه هو.. الله يغفر بشرط وجود التوبة الصادقة فمتى سيلحق نفسه ويتوب؟

***

– شكرًا لك..

كانت جملة مقتضبة قالها باسل دون أن ينظر إلى وجهه فعلق بتوضيح..

– كل الملابس جديدة ولم تستخدم من قبل..

وأجابه شقيقه بلكنة تحمل الكثير من المرارة..

– وإن لم تكن كذلك لم أكن لأعترض إن كانت ملابس شقيق وشقيقه يتبادلانها سويًا.. أنا أرتدي ملابسك القديمة بكل سرور يا ياسر، لطالما ارتديت ملابسك ونحن أطفال وكنت وقتها غاية في السعادة.. كنت في كل مرة أرتدي فيها ملابسك القديمة أشعر أني كبرت وأشعر بالسعادة أني أصبحت مثلك.. كنت انتظر زيادة طولي بأي مقدار لألحق بك.. لطالما أردت أن أكون مثلك حتى تخليت عنا وقتها فقط أيقنت لا هذا ليس ما أريده أنا أريد أن أكون شقيقًا حقيقًا لأشقائي، أنا لا أحتاج ملابسك الجديدة يا ياسر ولا أحتاج أموالك أنا فقط أريد شقيقي المفقود.. لا أستطيع النوم وعمار أو مؤمن بعيدين عن عيناي ومنذ رحيلك لم أستطع النوم براحة.. هل تعلم لماذا؟ لا

أعتقد أنك تعلم لكن اسأل نفسك فلربما تصل لنتيجة إذا كان قلبك مازال يحمل لنا الحب..

كلمات باسل قاتلة موجعة لكنه كان بحاجة إليها.. ورفع عينين دامعتين إليه ليجد عيناه تحملان نفس الدموع والكثير من اللوم والعتاب وجسده ينتفض ربما من البرد وربما من الغضب وربما أيضًا من القهر..

لماذا فرطت فينا ياسر لماذا؟ نحن لا نريد منك سوى وجودك والشعور بحبك..

الكلمات الآن لا محل لها من الإعراب فخلع سترته ووضعها على كتفي باسل.. وقال بتأكيد..

– من الآن سأكون ستركم وغطائكم فقط امنحني الفرصة وسترى..

***

قلبه يكاد يتوقف من شدة خفقانه.. الرجفة شملت كل جسده.. يديه وقدميه وحتى قلبه كان يرجف... مكان اللقاء المنتظر يقترب بسرعة الصاروخ وكأنه مراهق في موعده الأول.. يترقب اللقاء ويخشاه في نفس الوقت... لكن كيف ستعرفه وهو يسير على الطريق الدائري؟ هي لم تعطه أي معلومات فقط غموض كعادتها.. لكنه قرر خوض التحدي لآخره.. حتى لو كانت نهايته على يديها فسيموت سعيدًا وخصوصًا أنه قضى ليلتين من الهناء مع أسرته استعاد فيهما علاقته مع اشقائه وشاهد سعادة والدته بعينيه.. كم كان غبيًا لحرمانه نفسه من دفء العائلة.. وصحبة الاشقاء.. هم أفضل أصدقاء على وجه الأرض.. يكملون نقصه ويخلصون له في الحب ثم تكفي متعة

مجالستهم ليعود باحثًا عنهم بإرادته ويعود ليعوضهم عن كل ما فرط فيه...ثم حنان شقيقته الفياض.. إنها تغير رأيه عن النساء تمامًا ببراءتها ورقتها...

«ما هذا الذي يراه؟».. كان يسير بسرعة عالية لذلك لم يتمكن من التوقف في الوقت المناسب.. لكن هناك على الطريق الدائري بالقرب من مخرج طريق الواحات كما أخبرته تمامًا.. كانت سراب متوقفة إلى جوار سيارتها الرياضية الحمراء التي تلفت الانتباه بشدة من تفردها في التصميم ويتجمع حولها العديد من السيارات.. وسربًا من الرجال الجائعين الذين يلتهموها بأعينهم...

في الحقيقة هي كانت في أقصى درجات حشمتها بمعطفها الأسود الطويل الذي يعلم جيدًا ما يغطي تحته من مفاتن تفسد حتى القديس وتجعله يخرج من محرابه وبشعرها المرفوع في شنيون أنيق يعطيها رزانةً ووقارًا وعمرًا يفوق عمرها الحقيقي ولزيادة التخفي كانت تغطي عينيها الناريتين بنظارة شمس سوداء كبيرة ابتلعت معظم وجهها لكنه تعرف عليها..

كانت أيضًا وحيدة بدون ذلك الغريب الشاذ الذي تطلق عليه حارسها الشخصي..

وبدون تفكير وحتى بدون مراعاة لصف السيارات الذي يسير خلفه عاد بسيارته إلى الخلف بسرعة مثيرًا عاصفة من التراب وانضم للجمع الغفير الذي كان يحيط بها يعرضون المساعدة.. كان يعلم نية معظمهم الخبيثة من وراء توقفه.. وفور وصوله سمعها تشكر الجميع بلطف... صوتها كصوت نغمات صادرة من آلات موسيقية ناعمة.. خدرت الجميع بصوتها العذب وكأنها ساحرة ثم علقت بلطف...

– مجددًا أشكركم جميعًا على التوقف لمساعدتي.. سأتصل بورشة اتعامل معها وسترسل من يقطر سيارتي لاحقًا.. أنا في طريقي إلى الفيوم.. هل أجد من يقلني في طريقه؟

نظرات الأسى ارتسمت على الوجوه... ربما أراد بعضهم تغيير وجهته لمجرد إيصالها ليمتع عينيه بجمالها من بعيد أو حتى للتحرش بها لكنه انتبه فجأة لما تفعله بالتأكيد سألت من قبل وعلمت عن الجمع ووجهاتهم وأنه لا يوجد فيهم من يكون طريقه طريق الفيوم..

كاد أن يتغابى ويضيع فرصته.. فهتف فجأة وكأنه يستفيق من غيبوبة..

– أنا في طريقي إلى الفيوم.... نظرت إليه بخنوع وقالت..

– إذًا هل تتكرم بنقل حقيبتي من صندوق سيارتي إلى صندوق سيارتك؟

***

صدى ضحكاتها تردد في كل السيارة... كانت لا تستطيع السيطرة على نفسها من منظره.. كان يبدو مذهولًا بشدة من ذكائها.. يعود كالطفل الرضيع أمامها... وهي تمالكت نفسها ثم بدأت في إرشاده إلى الطريق...

أول ما تبادر إلى ذهنه أنها تعلم الطريق جيدًا.. مع من يا ترى كانت تقطعه قبله؟ إنها الغيرة القاتلة والقتل البطيء لروحه المعذبة..

سألها بقسوة عجز عن إخفائها..

– هل زرتِ هذا المكان من قبل؟ نظرت إليه بتمعن ثم قالت بهدوء..

– بالطبع.. أوقف سيارته بفرملة رهيبة كادت أن تصدم رأسها بالزجاج.. سألها بعنف..

– مع من سراب؟ أجابته ببساطة..

– مع زوجي بالطبع... فهكذا علمت عنه.. منه.. هدأ نسبيًا لكنه كان ما يزال يصارع أفكاره.. الاستسلام السهل له يجعل الشياطين تتراقص في عقله.. منذ متى يهتم بعلاقات عاهراته.. هز رأسه بقوة أثارت انتباهها... «لا أبدًا سراب ليست بعاهرة.. إنها بريئة براءة العذراء في علاقتها الأولى على الرغم من كل القذارة في حياتها» أكملت بقرف وتجاهلت هز رأسه..

– ظاهريًا هو زوج مثالي ورومانسي.. كل فترة يحرص على حجز جناح شهر العسل ليظهر أمام الناس كرجل حقيقي وطبيعي وينفي عنه الشذوذ وميله للرجال.. ثم يمارس شذوذه من تحت أعينهم بكل بجاحة... هكذا هو الشيطان لا يمكن أن تفوز عليه أبدًا.. يحيط بك كالأخطبوط ويعتصرك بدون أن يترك أي أثار تدينه..

«شخص خطير كهذا كيف ستختفي سرابه دون إثارة انتباهه؟» سألها بفضول..

– وكيف ستتغيبين عن المنزل؟ ألن يعترض ثم يتساءل؟ ثم أيضًا إدارة الفندق.. كيف ستتغاضى عن قسيمة زواجنا؟

عادت برأسها إلى الخلف.. ازدردت ريقها بصعوبة وهي تقول...

– لشهور وأنا أحاول زيارتك وفقط تمكنت عندما سافر لخارج مصر.. هو لاحظ تغيري في الفترة الأخيرة ومنعني من الخروج بمفردي وكانت النجدة في سفره.. سيغيب لمدة أسبوع وأنا دبرت اختفائي جيدًا

فحاشيتي المخلصة لن تبلغه.. وإدارة الفندق لا تسأل عن أي تفاصيل طالما تدفع جيدًا..

– هل قمتِ بالحجز؟ أجابته بثقة..

– بالطبع ففندق كهذا لا تضمن أبدًا توفر غرفة فيه.. وعاد للقيادة بأريحية بعدما اطمئن أنها ستكون له بالكامل في غياب الشيطان أو أيًا كان لقبه أو صفته.. في العادة القيادة تكون مملة لكن القيادة وسراب إلى جواره تختلف.. إنها تشبع حواسه وتغذي مشاعره.. ليتها تترك الشيطان وتنتمي إليه هو فقط.. حظها تعس منذ مولدها لانتمائها لذلك الأب الحيوان لكن هو سيحاول أن يرمم ما فعله الدهر بها.. سيثبت لها أن الرجال لا تتشابه وأن الحب موجود... وربما سينتهي بمعرفة هويتها الحقيقية عندما تطمئن إليه.. من الغريب أن يكونا على علاقة شديدة الخصوصية كالتي ينوي أن تجمعهما ولا يكون يعرف حتى اسمها.. لكن هذا لا يهم الآن فبماذا سيفرق اسمها على كل حال؟ في الفراش تختفي الملابس والألقاب ولن يضير اختفاء الأسماء أيضًا... سمعها تصيح فجأة..

– انحرف من هنا..

المدخل إلى الفندق يكاد يكون غير ملحوظ.. الطريق الجانبي المؤدي إليه لا يثير الانتباه على الإطلاق... من البداية تأكد من أن الفندق فعليًا معزول ويتمتع بالخصوصية كما وصفته سراب.. انحرف كما أشارت ليقطع مسافة طويلة ربما تصل إلى العديد من الكيلومترات في ممر ممهد كتب على بدايته (طريق خاص) وينتهي ببوابة حديدية مرتفعة..

إلى الآن مظاهر الرفاهية التي حدثته عنها لا تبدو واضحة... بل الأقرب للدقة كانت مظاهر الكآبة هي الواضحة وكأنها مقبرة عتيقة تحتضن جثث قتلاها من معذبي الروح.. هذا كان انطباعه الأول عن المكان والانطباعات الأولى تبقى محفورة في الذاكرة مهما غطتها انطباعات أخرى..

ولدهشته فور اقترابه من البوابة الضخمة فتحت تلقائيًا على مصرعيها لتدخله إلى حديقة عملاقة... هل بدأ يغير رأيه في المقبرة لتتحول لجنة عدن؟! الحديقة كانت كجنة الله في الأرض بلا مبالغة..

بالفعل من صمم الحديقة أبدع في تصميمها... الماء والخضرة على مرمى البصر وبجواره الوجه الحسن... سيجعلهما ليلتان بالعمر كله ولن ينساهما أبدًا...

أشارت إليه ليتوقف أمام مدخل صغير جانبي... قائلة..

– هذا هو المدخل الخاص بحجزنا... رفع رأسه ليتأمل اسم (كازابلانكا) المكتوب بحروف مضيئة بلون وردى ناعم... وفور اطفائه للمحرك غادرت سراب السيارة على الفور...

كانت ماتزال تتخفى بنظارتها الضخمة.. وهو تبعها كالمسحور.. وكاد يقفز فزعًا حينما استقبله كلبان شرسان يزمجران بغضب..

الاستقبال الغير ودود من الكلبين جعله يتراجع لكنه فورًا لمح حارس يسرع لتهدئتهما ويفسح لهما الطريق للمرور.. مع توتره الملحوظ ابتسمت بخبث وهي تسأله..

– هل تخشى الكلاب؟ أجابها بضيق..

– أنا فقط تفاجأت.. أيضًا من المفترض أنه مكان للاسترخاء وليس لحرق الأعصاب..

قهقهت بصوتٍ عالٍ متعمدة استفزازه..

– إذًا انتظر حتى ترى الأَسود... هم أيضًا غير ودودين بالمرة.. نظر إليها بغيظ وهو يقول..

– أنا لا أخشى شيئًا سراب.. وسخريتكِ مني ليست في محلها... هل تعتقدين أنني طفل لتخفيني بالأسود؟ همست في أذنيه..

– أنا لا أخيفك.. أنا فقط أخبرك بما هو متواجد

فعليًا هنا.. بعد قليل ستتعرف إليهم... وكأن باب السماء كان مفتوحًا.. زئير حاد اخترق صمت المكان.. وصحبه تعليق سراب..

– لقد أخبرتك..

ما هذا المكان الكئيب المرعب.. أين الرفاهية والاسترخاء؟ لم يجد سوي التوتر والرعب حتى الآن.. حتى أن جمال الحديقة الذي أمتعه لبعض الوقت بدأ يتلاشى من ذاكرته..

تنحنحت وهي تشير إليه ليكمل سيره..

– هنا كل شيء صنع ليناسب كل الأمزجة.. لن يجبرك أحدًا على زيارة الأسود لكن هناك من يأتي خصيصًا إليهم.. ومن جناحك الخاص لن تستمع إلى أي أصوات أو ضوضاء... استرخي ياسر ولا تفسد عطلتك.. أنا فقط كنت أمزح معك... ثم همست بدلال..

– هذا الباب لم يكن ليفتح لنا إلا عندما يخلو البهو من الزائرين.. اطمئن كل الامور محسوبة بدقة...

كل خوفه وقلقه وحتى غضبه تلاشي مع دخوله إلى البهو.. بالفعل مكان فاخر يليق بالصفوة.. سيعيش ليومين كالملوك.. منتصف مارس في العادة يكون الجو فيه يميل إلى الاعتدال لكن في بعض المناطق وخصوصًا الصحراوية منها يكون قارص البرودة في الليل... لكن هذا المكان كان يشع بالدفء من الواضح انه يعتمد على التدفئة المركزية... في حياته لم يرى مثل هذه الفخامة وهذا الترف.. حتى موظف الاستقبال الذي كان منهمكًا في العمل على بعض الأوراق كان كعارض الأزياء من شدة وسامته وقوته الواضحة... رفع عينين غائمتين وقال برسمية شديدة..

– كيف أستطيع خدمتكما؟

حلمه يقترب وسيصبح حقيقة بعد لحظات.. ابتسم بسعادة وهو يقول..

– لدينا حجز ليومين... في الجناح الملكي.. الموظف أومأ برأسه وهو يتطلع إلى حاسوب أمامه..

– باسم من تم الحجز؟ شعر بالنشوة وانتفخت أوداجه.. سيعلم اسمها الآن... سراب هي من تولت الإجابة كما توقع.. قالت بدلال يحطم أشد القلوب تحجرًا..

– سراب... أراد أن يصفع الجدار بيديه لكنه بدلا من ذلك وجه غضبه للموظف.. بالتأكيد سيكون يغازل سراب.. لكن لدهشته كان وجهه يخلو من أي تعبير وعيناه مظلمتان... وبآلية ضغط بضعة أزرار على جهازه ثم دق جرسًا بجواره ليظهر عامل يرتدي زي الفندق المميز..

– سمير... اصطحبهما للجناح (زد) وأعاد نظره إليهما وهو يتساءل..

– والحقائب؟ بالتأكيد كان يعلم أنه في مثل هذا المكان لا يحتاج النزلاء لكثير من الملابس وبالتالي لا يحتاجون إلى الكثير من الحقائب.. أشارت سراب إلى الخارج وقالت بهدوء..

– في السيارة.. رجاءً ارسلها إلينا في جناحنا.. قال الموظف بأدب..

– كما تأمرين سيدتي... ومد يده لاستلام مفاتيح السيارة من ياسر الذي سلمه إياها طواعية...

لا أوراق لا أسئلة شخصية لا تطفل فقط ادفع وتمتع بخصوصيتك ورفاهيتنا المميزة...

وعادت مظاهر الرفاهية للظهور مجددًا واختفت مظاهر الكآبة والتوتر.. تغير صادم من النقيض للنقيض يجعلك تعجز عن التفكير السليم..

الطريق إلى جناحهما كان كأنه صنع بماء الذهب والدرج زين على طول ارتفاعه بلوحات زيتية راقية... خبرته الفنية معدومة لكنه كان أكيدًا من أن تلك اللوحات تساوى الملايين وتحمل توقيع أشهر الفنانين.. بل والأكثر إثارة للدهشة أنه شبه واثق من أن لوحة السيدة العجوز تلك أبلغ عن اختفاء شبيهة لها من متحف عالمي من قبل... وعندما لاحظت سراب أنه يدقق النظر إليها قالت بخبث..

– ألم أخبرك أنه صنع ليناسب جميع الأمزجة؟

(جميع الأمزجة) جملة شاملة يندرج تحتها العنيف والشاذ والقاسي والرومانسي والحالم.. وبمساعدتهم يستمتع الخائن والخاطئ والشريف...

كيف بُنِيَ مثل هذا المكان الغريب؟ توجد أماكن وأشياء لم يكن يتخيل وجودها مطلقًا في عالمه.. الكازابلانكا هل هو أشبه بجنة عدن أم في الحقيقة هو أشبه بالمسيخ الدجال في فتنته؟

زورونا تجدوا ما يسركم بشرط خلع مبادئكم وفطرتكم السليمة قبل الدخول..

هنا لا ترى البؤس على وجه البشر الغارقين في محاربة الحياة لأذنيهم ولا تشعر بالحرارة الخانقة ولا تشم رائحة العرق فقط تجد الراحة والرفاهية التي تغويك وتغريك وتجعلك عبدًا صاغرًا لها لتتمتع بكل ما سيقدم لك...

كانت تراه فاغرًا فاهه أمام اللوحة فهتفت بخبث..

– إنها الأصلية أؤكد لك...

يا للهول لوحة السيدة العجوز التي شغلت الرأي العام وتحدثت عن اختفائها كل الجرائد الشهيرة والمحطات التليفزيونية المختلفة تختبئ في فندق سري على طريق الواحات... نظر إليها برهبة وسألها..

– هل أستطيع لمسها؟ أجابته بإغواء...

– بالطبع هنا تستطيع لمس أي شيء...

رسالتها الصريحة واضحة... تستطيع لمس أي شيء حتى هي.. وخصوصًا هي... إذًا لماذا الانتظار؟ سيسارع بقبول دعوتها و(يبدأ اللمس) وبدلًا من لمس اللوحة النادرة اتجه بلهفة إليها... كاد أن يضمها وينهل عسلها ولم يهتم أنهما لم يصلا بعد إلى جناحهما... لكنها أبعدته بلطف..

– انتظر يا شقي... الجناح على بعد خطوات..

وأكملت بمرارة..

– هل تعلم؟ إنه نفس الجناح الذي ينتهكني الشيطان فيه لكني سأرقص الآن على أنقاض رجولته... وبأمواله..

هل هو مجرد وسيلة تستخدمها؟!

تعقله عاد إليه مع كلماتها.. أوقف تقدمه ليمسك ذراعها بقسوة...

– هل تستخدميني للانتقام سراب؟ هل هذه هي طريقتك للانتقام منه؟

ابتسمت بسخرية...

– بالطبع لا... انتقامي سيكون أعنف بكثير.. لكن اعتبر هذا احتفالًا بحريتي... أن أشرب معك نخب انتصاري عليه...

– ولماذا أنا يا سراب؟ لماذا اخترتني أنا؟ أكملت سخريتها..

– الآن تتساءل وأنت على باب النعيم؟ تستطيع أن تتراجع بكل سهولة أنا لن أتوسل... ثم مسكت أنفها لتقول بحزن..

– وإجابة سؤالك «لأنك أول رجل احترمه وأول رجل حقيقي أقابله في حياتي» ... أنا اكتفيت من أشباه الرجال وكرهت كل لحظة في حياتي قضيتها وأنا أشعر أنني مُستغلة ومقهورة.. لذلك لن أستغلك أبدًا لتحقيق مآربي.. إن لم تشعر بما أشعر به فلا حاجة لنا بتكملة تلك التمثيلية.. أنا لا أسعى إلى الجنس لكن أسعى إلى الأمان والحب.. إن لم يكن لديك ما يكفي منهما إذًا فقط ارحل ولا تريني ووجهك مجددًا...

يرحل والآن؟ بعدما أصبح بينه وبين امتلاكها خطوات... جذبها بعنف ليدخلها إلى الجناح الذي سبقهما إليه سمير... البقشيش الجيد سيكتم الأفواه ويخرس الألسنة.. وضع يده في جيبه ليخرج مبلغًا محترمًا أعطاه لسمير الذي خرج فورًا وأغلق الباب خلفه...

***

# 6 | الليلة الكبيرة

«متع الحياة بين ما يباح وما لا يباح مصفوفة وصحيفتك كتبت وبخطيئتك ممهورة، وكانت لذة اللحظة منظورة لكن سيقابلها خالدًا فيها فبئس أفعالك المحظورة».

لم يكن يومًا شديد اللهفة هكذا لنيل إحداهن... تلك السراب جنته وجحيمه لذته وتعذيبه... يعلم أن نهايته ستكون على يديها لكنه لا يستطيع منع نفسه..

لكن منذ متى المسحور يتوقف للتفكير أو يهتم لما سيحدث بعد ذلك... إنها اللذة المسكرة التي تطغى على أي إحساس آخر... إدمان النشوة التي سوف ترفعه إلى السحاب أو تخسف به إلى سابع أرض... أمامه فقط ساعات محدودة ولن يضيع منهم أي لحظة.. اللهفة جعلته حتى لا يركز في فخامة الغرفة المستحيلة... ففخامة الأنثى التي معه تكسب وتكفي ليمتع نظره بها.. وفور دخولهما إلى الجناح خلعت سراب معطفها لتظهر فستان شتوي من الصوف الأصلي الرقيق بلون وبر الجمال... بدت رقيقة للغاية وراقية..

هل تستفز مشاعره ليمتنع عن لمسها... لكن مهما تفعل لن يتراجع الآن ولا يهمه من كل المساحة المحيطة به إلا ذلك الفراش الوثير الضخم...

إن كانت هي لا تسعى إلى الجنس لكن هو يسعى إليه... ضمها بشغف عبر عن مقدار رغبته بها لكنها أبعدته مجددًا بلطف ووعود خفية...

– أعمال النهار للنهار وحب الليل بالليل.. أنت لم تجرب أطباقهم اللذيذة بعد أو تستمتع بجمال المكان... مباهج الحياة لا تنحصر في الفراش يا ياسر.. لا تضيق منظورك للاستمتاع وتعتبرني مجرد ساقطة التقطتها من الشارع.. إن لم تكن كل رفقتي ممتعة فأنت هكذا تهينني بشدة... غمغم بإحباط...

– سراب أنا رجل ومقاومتي لها حدود...

الدموع تلألأت في عينيها الزيتونيتين..

– ياسر.. هل تعتبرني ساقطة؟ ماهي فكرتك عني بالتحديد؟ من حقي أن أعرف قبل البدء في علاقة قد تدمرني تمامًا وأنا لم يعد بإمكاني احتمال دمارًا جديدًا...

لماذا تبدو بتلك الكآبة الآن... ألم تعده منذ قليل بالجنة ثم تحرمه منها وهو على أعتابها... لماذا تسأل ذلك السؤال اللولبي اللامنطقي الفاصل في هذا الوقت بالتحديد.. «هل يعتبرها ساقطة؟» ليكن صادقًا مع نفسه ولو لمرة واحدة في حياته.. لا هو لا يعتبرها ساقطة أبدًا... قد يكون اعتبر من قبل إناث سلمن أنفسهن له ساقطات لكن مع سراب يشعر أن علاقتهما هي الصواب بعينه.. هي خلقت له واتحادهما هو النتيجة الحتمية لما يشعران به من براكين متفجرة من الرغبة الخالصة.. والحاجة الملحة للاتحاد... مع أنه لا يعرف حتى اسمها لكنه يشعر أنه امتلك روحها...

أصابعه امتدت لتمسح دموعها...

– لا سراب أنا لا أعتبركِ ساقطة أبدًا... معكِ أولد من جديد ومعكِ الحب عبادة..

وضحكت باستهزاء جفف حتى دموعها..

– إذًا هيا إلى الصلاة في محرابي يا شيخنا..

وغمغم بضيق..

– هل عدتِ للاستهزاء بي؟ أنا أعني أن الحب الذي يطبب القلوب نوع من العبادة..

– حب؟ أنت تعني العلاقة الجسدية.. حاجتي لك تختلف عن حاجتك لي لكن في النهاية كلانا قذر، لا تكن كاذبًا وتخدع نفسك.. كل ما تريده مني هو العلاقة الجسدية.. نحن هنا في مستنقع الخيانة والرذيلة فلا تتلفظ بألفاظ رنانة..

العلاقة الجسدية فقط؟ هل هذا ما تعتقده؟ ووجد نفسه يهتف..

– أنا أحبكِ سراب... شهقتها المذهولة جعلته يستعيد في عقله ما نطقه لسانه... هل هو فعلًا اعترف لها بحبه؟ بالفعل هو فعل ذلك... الكلمات المحبوسة في صدره منذ شهور تحررت أخيرًا... لأول مرة يحب في حياته... لأول مرة يعرف ما هو الحب ويكتوي بناره، أصبح يشعر بالغيرة عليها من زوجها انقلبت الموازين وأصبح العشيق هو من يغار من الزوج...

والمحب الغيور لا يستطيع الانتظار لكنه مجبر... لو أخذها فورًا ستتأكد من شكوكها... المحب يستطيع الاستمتاع مع حبيبه في الفراش وخارجه.. يكفيه قضاء الوقت معه ولمس كفه كي يتدفق الحب والدفء إلى عروقه...

قد لا تصدقه لو اعترف لها بحبه اليوم.. ربما تعتبره نوعًا من الخداع حتى ينال غرضه وينالها في فراشه بسهولة أكبر.. سيثبت لها أنها مخطئة في ظنها فيه... سيدع الوقت هو من يثبت لها حبه وليس الكلمات التي تخرج من اللسان...

أخيرًا قال بابتسامة واسعة...

– أنا جائع.. دعينا نجرب أكثر الأطباق المشهورة لديهم... ابتسامتها اتسعت لتفوق ابتسامته اتساعًا وهي تخبره...

– سأختار لك على ذوقي أطباقًا لن تنساها في حياتك... أنا أعرف الأصناف المميزة لديهم...

حتى خدمة الغرف كانت بنفس درجة الاحترافية... الخادمة وضعت الطعام في الشرفة الكبيرة حيث أشارت لها سراب بوضعه وانصرفت فورًا دون أن تنظر إلى وجوه الضيوف.. وجلست سراب أولًا وهي تضع ساقًا فوق أخرى بأريحية ثم دعته للجلوس..

طبق أضلاع لحم الحمل مع العسل والبصل المقرمش المسكر كان له مذاقًا خياليًا... الطبق قدم مع البطاطا المهروسة وقطع الأناناس والخضروات المشوية بتوابل لم يستطع تمييزيها.. كل قطعة كان يتذوقها كانت تحسن من مزاجه... مجددًا سراب تثبت أنها معها حق... مباهج الحياة كثيرة لمن يفتح عقله... لم يستمتع يوما بأكلة كالتي أكلها اليوم.. ربما لأنه لأول مرة يشاركها وجبة.. وربما فعلًا لأن الطبق كان مميزًا جدًا...

سراب أخبرته عندما لاحظت استمتاعه...

– طبقي المفضل أضلاع لحم الحمل بالعسل مع الخضروات المشوية بالزعتر واكليل الجبل المزين بشرائح الأناناس المشوية... أفضل دائمًا مزج طعم الحلو مع الحامض في أطباقي.. المذاق المثير ينعشني... بعد أن أكون قد تمزجت من ارتشاف صحن شوربة الفطر شديدة الدسامة كالتي طلبتها اليوم... أنا لا أهتم لوزني كثيرًا حينما أجد الطعام الجيد... همهمة استمتاع صدرت منه...

– أمم... انه لذيذ فعلًا... ووزنكِ مثالي تحسدكِ عليه جميع النساء.. إن كان الأكل دائمًا بتلك الجودة إذًا فهو السبب في تفجر أنوثتكِ واستدارة منحنياتكِ.. ضحكت بدلال وهي تقول..

– ألم اخبرك؟ لن تنسى أبدًا تجربتك هنا.. ليالي ستحفر في ذاكراتك كوشم النار... المتعة الخالصة في أنقى صورها..

«ستحفر في ذاكرتك كوشم النار» ليالي النعيم ستحفر بذاكرته بالطبع.. حبها يوسم قلبه ويطبع عليه ختم الامتلاك للأبد... عشقي فريد مميز يجري في عروقي مجرى الدم ولا خلاص منه إلا بالموت.. هكذا هو عشقي أنا نوع فريد من عشق الرجال... قطع أفكاره على صوتها العذب يقول..

– والآن وقت التحلية... كل لحظة يقضيها معها هي تحلية في حد ذاتها لكن ذلك لا يمنعه من تذوق تحلية حقيقية إن كانت بنفس جودة الطبق الرئيسي..

– الكريم برولیه مع صوص التوت المكثف.. ينقلك إلى الجنة على أجنحة الملائكة... هذا يكفي.. حقًا سيصل للجنة طائرًا على أجنحة الملائكة فالشياطين لا تملك أجنحة ولا تطير في الفضاء بل تدفن في سابع أرض..

استمتاعه وصل إلى حد العذاب.. إن كان هذا هو النهار فما بال الليل؟

– سنأخذ القهوة في جزء خاص من الحديقة... هناك ما أريدك أن تشاهده...

سيتبعها حتى الجحيم القوانين سطرت منذ زمن بعيد... نهضت برشاقة وهي تمسح فمها المثير بمنشفة بيضاء ناصعة البياض ثم تلقيها بدون اهتمام في وسط صحنها... نهض هو الآخر... حلقه الجاف جعله يرتشف قطرات من الماء البارد...

قالت بتأكيد..

– لا داعي للمعاطف... الجو هنا شتوي دافئ في العصاري حتى وإن لم نكن في مارس لكنه غدار قارص البرودة في الليل.. احذر من غدر هذا المكان فعلى الرغم من أنه يمتعك لكنه يستطيع إزهاق روحك إن لم تكن منتبهًا تمامًا... اتبعني...

كيف لم ينتبه من قبل إلى الدرج الصغير الذي يهبط من الشرفة إلى الحديقة دهشته جعلتها تقول...

– أنت لم تكن تستمع إلي يا ياسر.. ألم أخبرك أن الخصوصية هنا مقدسة.. جميع الأجنحة بها مخارج للحديقة مثل تلك وجميعها تشرف على جزء خاص معزول عن الآخرين... سترى جزئك الخاص من الحديقة فقط... مسحور مبهور منتشي ومكتفي هذا هو حاله.. تبعها في صمت وهي لم تعترض حينما لحقها ليحيط كتفيها بذراعيه ويقربها منه... همس في أذنيها..

– ماذا أردتِ أن تريني؟

– أنت تتحول لعجول.. الصبر...

بدأ يكذب أذنيه في الصوت الذي يسمعه.. الزئير البعيد يقترب ويتحول إلى صوت أكثر وضوحًا... وهي أكدت شكوكه..

– سنشاهد أقفاص الأسود... طالما الأسود مسجونة في أقفاصها فما الضير من مشاهدتها... لكنه أوقف تقدمه بغتة عندما اقتربا من مصدر الصوت.. من صاحب المزاج الدموي ذلك الذي يجلس لاحتساء قهوته بجوار الأقفاص؟ أربعة من الأسود الأفريقية كثيفة الشعر كبيرة الحجم كانت تتجول غاضبة بداخل أقفاص متسعة متجاورة... من طريقة وضع الأقفاص بهذا التشكيل تشعر بأن واضعهم هكذا يريد أن يختبرهم في سباق للفوز بغنيمة ما.. واقشعر جسده عندما تخيل أن الفريسة ربما تكون بشرية... على غرار الطريقة الرومانية عندما كان الجمهور الروماني المنحرف يتمتع بمشاهدة الأسود وهي تلتهم العبيد.. ربما تجوع هذه الأسود لأيام ثم تفتح الأبواب معًا ويبدأ السباق ومن يفوز منهم ويصل أولًا ينعم بالطريدة ومخرج المشهد الدموي السادي يجلس على الطاولة الفخمة في الجبلاية المرتفعة المحاطة بالصخور فيكون في مأمن من شر صنيع يديه ويشاهد صنيعه هذا باستمتاع.. يتلذذ ويتشفى في فريسته التي نهشتها الأسود الجائعة أمام عينيه... لا.. لا يمكن أن يوجد بشري بتلك البشاعة... من المؤكد أن خياله شطح للغاية... مجرد جلسة بريئة لتأمل الأسود الجائعة وهي تلتهم فريستها من الحيوانات وليس من البشر ربما الحمير غذاءً مثاليًا لها.. لكن حتى مشاهدة عملية الافتراس لفريسة حية أمرًا غاية في القسوة والسادية واحتساء الشاي أو القهوة في هذا الجو مختلف جدًا عن الفطرة السليمة... لكن ألم يبنى ليناسب كل الأمزجة؟ قد يتقبل أي شيء إلا المزاج الدموي الذي تخيله في البداية... هو صحيح

بلا ضمير لكن تلك البشاعة التي ربما تكون موجودة في العالم الذي لا يعرفه تتركه مجرد مجرمًا صغيرًا يحبو...

قال فجأة...

– لا أدري لماذا لكن هذا المكان يشعرني بأن الأسود تتغذى على البشر... أجابت بخفة...

– ربما... إن طلب أحد العملاء ذلك... هنا لا شيء مستحيل...

لا يمكن أن تكون جادة.. إنها تسخر منه مجددًا.. هز رأسه بالنفي بقوة

– لا أستطيع تخيل تلك البشاعة مطلقًا..

– إذًا لا تفعل... أنت أتيت هنا للاستمتاع بالجنس وتلك هي شهوتك.. وغيرك يأتي للدم ورؤية الدماء هي شهوته وفي النهاية كلها خطايا وكبائر وربما خطيئتك لا تفرق كثيرًا عن خطاياهم.. كلكم تتبعون غرائزكم وكلٌ وغريزته...

نظرة الارتياع في عينيه جعلتها تتراجع قليلًا..

– ثم أنت افترضت السيناريو وصدقته... لا تشغل بالك بمتعة غيرك واستمتع بما أتيت أنت من أجله.. كيف تحب قهوتك؟

– بن فاتح بدون سكر... ضغطت زرًا خفيًا كزره الخفي الذي يوصله بمرزوق... وفي لمح البصر كانت الخادمة التي سبق ورآها في الشرفة تقف بأدب وخضوع حتى أنه لا يعلم من أين ظهرت...

– قهوة بدون سكر (بن فاتح) وأخرى مضبوطة.. كالمعتاد نينا....

الخادمة انصرفت لإحضار طلبها فورًا وياسر امتعض..

– لماذا هنا يا سراب؟ اختاري أي مكان آخر.. حتى رائحتهم غير لطيفة لا أتحملها... ترجته بضعف...

– ياسر.. أحيانًا احتاجك كطبيب.. الآن احتاجك كطبيب... أردتك أن تعيش معاناتي.. هنا المكان المفضل للشيطان... يجبرني على احتساء القهوة هنا كلما أتينا.... يهددني بإلقائي إليهم إذا أغضبته... متعته كانت في جعلي دائمًا خاضعة ذليلة منتهكة كالمعتاد وكأنه قدري منذ يوم ولادتي حتى دخلت أنت حياتي فشعرت أنه بإمكاني أخيرًا تغيير هذا القدر، إن كنت لا تعتبرني ساقطة كما تقول فتحمل معي.. شاركني حياتي... اشعر بألمي... هل تريد نهل عسلي بالساهل بدون معاناة؟ لهجته حملت كل إشفاقه وتأثره..

– سراب.. أنا موجود دائمًا لأجلكِ ومعاناتكِ وصلتني منذ أول جلسة.. أستطيع تمييز الألم الصافي حينما أراه ربما عذابكِ هو ما جذبني إليكِ.. أردت أن أمسح الحزن من على وجهكِ وأبدله بالحب... آهة عذاب رنت على طول الحديقة... نظرت إليه بعينين معذبتين..

– أرجوك ياسر.. لا تكرهني يومًا... مهما فعلت لا تكرهني وتذكر أن حياتي لم تكن يومًا وردية... لابد وأنها تتألم.. كانت ولا زالت تتألم.. ضميرها يؤلمها بسبب الخيانة والزنا ولكن حاجتها إليه تجعلها ضعيفة.. وهو يقدر ذلك... يقدر حبها لها ورغبتها فيه..

لن يحاكمها على خطايا يفعلها هو... وعلى آثام تشبعت بها من جنس الرجال الظالم... مد كفيه عبر الطاولة يتمسك بكفيها الباردتين...

– سراب حبيبتي... أنا لن أكرهكِ أبدًا أو احتقركِ بسبب حبكِ لي... بل على العكس هذا يرفعكِ في نظري... أنا أحبكِ سراب وأكررها مجددًا ولتلتهمني تلك الأسود إذا كنت أرددها بلساني فقط لإغرائكِ...

نظرة الارتياح شجعته لإكمال جولته في الحديقة وهو يحيط خصرها بذراعه سيثبت لها أنه مختلف ولا يرغب بجسدها فقط.... جلسا حول المسبح واستمعا إلى الموسيقى البديعة... «يكفي هذا يا سراب أنتِ تعذبيني بالحرمان» نهض فجأة وجذبها برفق..

– تعالي الجو يتحول إلى البرودة الشديدة والليل انقضى معظمه في الكلام.. تأخر الوقت جدًا.. وانتصف ليل الخميس ولم تصبحي لي بعد.. سنستكمل الحديث الهام في غرفتنا...

***

وأخيرًا... أغلق عليهما باب... رصيده من الصبر استنفذ ورغبته تتحول لتصل إلى حد الألم... كلماتها بدأت تثيره عندما قالت بهدوء...

– استعمل الحمام أولًا.. يا الله إنه يتخيلها عارية تحت الماء... هو يعلم كم هي جميلة وشاهد مفاتنها من قبل... والليلة سيلتهمها.. (الليلة الكبيرة) ستأتي أخيرًا... لا حاجة إلى الملابس التي سوف يخلعها حالًا.. بشكير الحمام سيفي بالغرض.. أشار لها بقبلة في الهواء وهو يلتقط عطره المفضل من حقيبته ويختفي في الحمام... على عجل أنهى استحمامه وتعطر في كل شبر من جسده ثم ارتدى البشكير الأبيض فائق النظافة والنعومة المعلق خلف الباب.. يبدو أنه أول استخدام له.. في فنادق مثل ذلك احتياطات الأمان والنظافة على أعلى مستوى.. السبعة نجوم تعني استخدام أشياء شخصية جديدة تمامًا حتى الأغطية والشراشف... وربما لو طلبت طلاء الجدار بلون معين فسيفعلون.. قد تكون فكرة جيدة سيترك الطب النفسي المرهق ويفتتح مكانًا على غرار هذا المكان... هو اكتفى من سماع تأوهات الناس وحزنهم وسيبدأ في البحث عن طريقة لإمتاعهم... خرج بثقة

ليقابل سراب وهي في طريقها إلى الحمام... سارت بروتينية ولم تلتفت إليه وأغلقت الباب خلفها...

***

السكون التام من حوله جعل من صوت عقارب ساعته وكأنه صوت طبول غاضبة أم كانت تلك أصوات دقات قلبه الثائر بجنون..

دقائق بطيئة مملة قضاها في الانتظار... قرر شغل نفسه حتى تعود سراب من رحلتها إلى الحمام والتي يبدو أنها ستطول وإلا سيجن قبل عودتها... جال بنظره في الغرفة ليلمح بارًا صغيرًا في أقصى يسار الغرفة... كيف لم يلمحه من قبل؟ حينما يكون مع سراب تشغل كل تركيزه ولا يستطيع التفكير في أي شيء سواها.. تأثيرها عليه غريب ومدهش كأنها تنومه مغناطيسيًا ليتوه في عينيها... استكشاف مشروبات البار سيكون أمرًا لطيفًا يرطب من رهبة تلك الليلة..

الكحوليات لم تكن يوم على جدوله المعتاد لكنه لا ينكر أنه تذوقها في مناسبات قليلة وخصوصًا الجعة التي كان يحتسيها مع بعض ساقطاته.. تذكر وصف هوميروس في الأوديسة لكيفية شرب النبيذ، وكذلك همنغواي في روايته وداعًا للسلاح.. الخمور تجربة في حد ذاتها تثري الحياة وتطورها لكن عاقبتها وخيمة.. لماذا يفكر في العاقبة الآن فليدع كل شيء لوقته والعواقب تأتي لاحقًا طالما سيتمتع حتى يكتفي.. العلمانية الفكرية التحررية في أنقى صورها فكرًا وعملًا... لكن هل هو فعلًا علماني؟ لا لن يتساءل الآن والمكان مهيأ لخطيئته بصورة مدهشة.. سيدة السراب الفاتنة والخمور والشيطان ثالثهما..

وبالتأكيد الخمور ستكون باهظة الثمن بداخل هذا البار لتناسب فخامة المكان وربما حضرت بطائرة خاصة من توسكانا الإيطالية

للكازبلانكا رأسًا، هي دنيا غريبة عليه ولن يحرج نفسه أمام سراب... سيتفحصها قبل مجيئها كي لا يظهر نفسه جاهلًا عند حضورها... وكان محقًا تمامًا...!

كل الأنواع تقريبًا فاخرة باهظة الثمن وغير معروفة بالنسبة إليه... ولا وجود للجعة إطلاقًا... ودلو الثلج يرتاح في مجمد صغير بداخل البار... أخرج دلو الثلج والماسك الفضي... واختار كؤوسًا من الكريستال البراق كانت تناسب احتفاله وبالتأكيد هذا المكان لن يكون فيه كؤوسًا عادية للتقديم ربما هذه الكريستالات تعود لنابليون بونابرت مثلًا... بدأ في الضحك بصوت عالي.. لقد ثمل قبل حتى أن يشرب وبدأ في الهلوسة... أخرج قنينتين مختلفتين وبدأ في تفحصهما... ربما دراسته الطويلة للطب ستفلح.. لغته الانجليزية الجيدة ستساعده لفهم المكتوب عليهما... بصعوبة استطاع تصنيفهما.. الأولى (ويسكي) والثانية (فودكا)..

دائمًا يسمع عن الفودكا في العلاقات الجنسية وتأثيرها الساحر وإن لم يجربها اليوم فمتى إذًا سيفعل؟ سيجرب ثم يقرر بنفسه.. ربما رسالته في الدكتوراه الثانية التي ينوي الحصول عليها ستكون عن تأثير شرب الفودكا على... استمر في الضحك بهستيرية... صدى قطع الثلج وهي ترتطم بحافة الكأس مثير وصوت السائل الأبيض وهو يغطيها يترك أثرًا يرهبه... يخطو إلى دنيا جديدة وغريبة..

لا يدري لماذا صورة والدته احتلت عقله وودعوتها رنت في أذنيه وكأنها تحدثه وجهًا لوجه... «الله يسترها معك... ويكفيك شر أولاد الحرام».

...

لا ليس اليوم يا أمي ربما غدًا سأتوب لكن اليوم توجد سراب وفقط...

وكالحلم سراب أصبحت أمامه فجأة بدون أن يشعر بتقدمها... صفير طويل لم يستطيع السيطرة عليه كان رد فعله حينما وقع بصره عليها... كانت حافية القدمين وترتدي قميص نوم أسود من الدانتيل الناعم الشفاف جدًا بدون أي ملابس داخلية تحته، كان يظهر أكثر مما يخفي.. القميص الذي عذبه بالكامل كان قصيرًا من الأمام وطويلًا الخلف مظهرًا ساقيها المثيرتين وخلخالها الذهبي الكبير الذي يهتز مع كل خطوة تخطوها...

أما جزئه العلوي فكان بدون أي حمالات ويلتف حول صدرها ويلتصق بوقاحة تثيره وكأنه جلدٌ ثانٍ لها لكن نزعه عنها سيكون أسهل ما يكون.. شعرها الأشقر الطويل كان يتبعثر بفوضوية على أكتافها...

(الرحمة) إنها الإغراء الصافي يمشي على قدمين... سكة الخطيئة والنشوة... الثمالة بدون الشراب... ابتلع سائله كله في نفس واحد جعلها تبتسم بإغراء وهي تقول...

– الفودكا قوية عليك... أعتقد الويسكي سيكون أفضل بالنسبة لك... الفودكا تحتاج قوة للاعتياد عليها...

الفودكا كانت كالنار الحارقة تحرق بلعومه لكنه لن ينخ أمامها سيظهر فحولته في أعتى صورها.. تحامل على نفسه وصب كأسًا آخرًا من الفودكا ليثبت لها قوته وفحولته....

مد يده بالكأس إليها لكنها رفضتها... قالت بألم...

– هل ستجبرني أنت الآخر على الشرب؟ ابتلع كأسه في رشفة واحدة..

– مطلقًا سراب... تعالي إلى هنا...

فور اقترابها حملها بلطف وأرقدها على الفراش... آه من شفتيها تعذبانه... قبلاتها تسكره أكثر من الفودكا... وجسدها يثيره بطريقة لم يصل إليها من قبل...

فجأة دفعته عنها بقوة... غثيان وصداع عنيف شعر بهما فور دفعها له... ثم بدأ في الارتعاش بقوة... كان يشعر أن معدته ستقفز خارج حلقه وشعوره بالغثيان أصبح لا يحتمل.. لا هذا محرج سيتقيأ الآن أمامها...

بدأ يشعر بالسواد يحيط به من كل جانب.. أراد المقاومة... أنه الآن كدون كيشوت يحارب طواحين الهواء... لكنها انتصرت عليه..

علم الآن أنه سيفقد الوعي قبل أن يمتلكها يا له من حمارٍ غبي... كيف يكون بصحبة آلهة الإغراء بنفسها ويثمل ويتركها محبطة...

يا لا غبائه.. حاول النهوض والإمساك بها لكنه سقط على وجهه كجلمود صخر.. والسواد انتصر وسقط في دوامة عنيفة ليس لها قرار..

«حب وأتلوع ولا طالشي»...

# 7 | الشيطانة

– غبي.. تجعلني أشعر بالقرف..

وبكل قرف بصقت عليه سراب وهو متكوم على الفراش.. ثم نظرت بتهديد إلى الشخص الذي كان يراقب من خلف الباب كالفهد المتحفز.. وصاحت بشراسة هرة غاضبة..

– إياك أن تبدأ في ترديد الكلام الفارغ الخاص بالغيرة يا هشام وإلا قتلتك أنت الآخر..

فتح الباب بعنف ليدخل هشام الغاضب إلى الغرفة.. للحظات ظل يتأمل ياسر المسجى فوق الفراش ويغط في نوم عميق...ضحك ضحكة صفراء مقيتة وهو يقول..

– كنتِ على حق يا هند الغبي اختار الفودكا...

ضحكة هند جلجلت عبر الغرفة الصامتة...

– أنا لم أدرس علم النفس لسنوات هباءً.. أنا درست شخصيته جيدًا.. لعبت على نقاط ضعفه ونقاط قوته.. كنت أسخر من ضعفه وعدم خبرته لساعات لذلك كنت أكيدة من أنه سيجرب الشيء الجديد الذي لم يتناوله من قبل حتى لا أسخر منه مجددًا... وسيختار الفودكا بالتحديد لأنها مشهورة في الإثارة الجنسية...

كز على أسنانه بغيظ وهو يقول...

– تنتابني رغبة في خنقكِ كلما تذكرت أنكِ نعتني بالشاذ أمام هذا الـ.. الـ..

قاطعته وهي مازالت تبتسم..

– ألم يعجبك دور غريب؟ غريب المسكين المنتهك جنسيًا... كبرياء الرائد هشام فهيم لم يتحمل أليس كذلك؟

قاطعها بعنف وهو يقول..

– على الأقل كان أفضل من دور موظف الاستعلامات القواد الذي حجز لكما الجناح... كدت أقتله بيدي لكن خطتنا كانت ستفشل.. لذلك تحملت أن أراكِ معه في غرفة واحدة لكن سأجعله يدفع الثمن غالٍ عن كل لمسة لمسها لكِ..

«هشام أبله كبير وغبي» الوقت يداهمهما... الرجال جميعًا أغبياء فهشام يتمسك بالتفاهات ويترك الأمور الهامة كل ما عملوا لأجله منذ شهور قد ينهار الآن بسبب غبائه.. سألته باهتمام..

– هل أزلت اللافتات التي وضعناها سابقًا؟

– نعم... وأعدت وضع لافتة مزرعة الكازابلانكا لصاحبها سعيد الجبالي..

– وسيارته؟

– كل شيء تم كما اتفقنا... السيارة تم تسجيل مخالفة سرعة بها على الطريق السريع قرب مدخل المزرعة وعادت لتقف في مكانها في الحديقة وتم محو كل بصماتكِ منها بالكامل ومن عيادته..

وأنتِ لم تغادري فيلا القاهرة مطلقًا حتى الآن.. ستثبت كاميرات المراقبة وقت مغادرتك في الخامسة من صباح الغد وستستقلين سيارتكِ وتغادرين في اتجاه المزرعة للحاق بزوجكِ حسب اتفاقكما منذ أيام والذي سيشهد عليه كل خدم القصر.. وستسجلين أنتِ الأخرى مخالفة بسيارتك بعد مغادرتك الفيلا بساعة..

علقت بقلق..

– هل تضمن ولاء نينا وسمير وبوسي؟

– بالطبع... الكثير من الأموال له مفعول السحر ونحن دفعنا بغباء..

مليارات سعيد وافرة وستكفينا جميعًا... نينا وسمير سيشهدان معي بأن عاشقكِ الولهان حضر بمفرده وبكامل رغبته عصرية الخميس وبوسي ستشهد أنك لم تغادري الفيلا مطلقًا سوى صباح الجمعة... وباقي خدم القصر سيشهدون بالحقيقة التي لا يعرفون سواها وهي سفر سعيد إلى مزرعته قبلك بأيام واتفاقكما على أن تلحقيه صباح الجمعة كالمعتاد كل أسبوع.. عادت لتسأله بقلق أكبر.. سألته وهي مازالت متشككة..

– هل أنت واثق من أن بديلتي لن تكشف وستنطلي الخدعة على الكاميرات؟ ابتسم بثقة وهو يقول..

– بالطبع هي لها نفس بنيتكِ تمامًا.. أنتما متماثلتان في الحجم والطول.. وملامحها تشبهك بدرجة كبيرة.. اختياري لها بالعمل لديكِ لم يكن عبثيًا.. كل شيء كان مخططًا له منذ البداية.. بوسي سترتدي ملابسك الأنيقة وستغطي شعرها الأسود بوشاح كما تفعلين عند

السفر ونظاراتك الشمسية الضخمة ستغطي وجهها وكاميرات المراقبة ستظهرها للحظات فقط وستدعم كلامكِ... وستقود السيارة في اتجاه المزرعة بسرعة عالية وتسلمها إلى أحد رجالي الذي سوف يسجل مخالفة السرعة.. وحين حضورك ستفجعين من وجود سيارة غريبة فتقومين بتصوير الفيديو للوي ذراعه وإجباره على طلاقكِ أو فضحه..

لا تقلقي كل شيء مخطط له جيدًا ومبررًا... انعمي براحة البال واستعدي لسنوات من المتعة الخالصة والأموال التي ليس لها حساب.. الوقت يجب أن يكون محسوبًا بالثانية.. الطب الشرعي عادة ليس دقيقًا لكن عندما يكون المجني عليه وزيرًا فالوضع سيختلف..

عاد بنظره إلى ياسر باشمئزاز ثم سألها..

– لكم من الوقت تظنين أن مفعول الحبوب مع الشراب سيدوم؟ ضحكت بسخرية وهي تقول..

– ربما أربع أو خمس ساعات وربما أقل وربما أكثر.. لذلك أسرع... وسنكون بالجوار وقت استيقاظه...

السخرية تحولت لضحكة تجلجل عاليًا..

– كان خلطي لحبوب البنزو مع الفودكا فكرة عبقرية.. اللورازيبام قصير المفعول وسينتهي مفعوله ويختفي من جسده بالكامل قبل أن يكتشف الناصح أن الشراب خلط به شيئًا ما يجعله ينام بعمق ويستيقظ متبلدًا..

وللإثارة أسباب متعددة منها شهوة القتل ورائحة الدماء...اقترب منها وأمسك بفكها بعنف ليهمس أمام شفتيها...

– انتظريني كما أنتِ تمامًا.. سأذبح زوجك في دقائق قليلة ثم ستكونين لي بعدها فورًا... لن أفوت مثل هذا القميص المثير سنحتفل بخلاصكِ منه بطريقتنا.. مالت إليه لتلتصق به في إغراء وقح..

– هل سبب لك المشاكل؟ ضحك بشيطانية..

– وكيف بذكائك سيسببها؟ أنا احتجزه في القبو كالكلب منذ أيام.. الجميع يعلم أنه يقضي أجازته في المزرعة دائمًا ولا يحب التطفل على خلوته... سيعتقدون أن طبيبكِ الأخرق كان طريدته هذه المرة لقد فاحت سيرته ولم تعد تخفى على أحد... كان قد هم بالمغادرة عندما استوقفته هند...

– كيف ستقتله؟ عقد حاجبيه بغضب..

– هل تتصنعين البلاهة يا هند؟ ألم نتفق؟ وعلى كل حال هذا يجب أن يتم هنا.. سترين بنفسكِ عزيزتي كيف سأذبحه كالنعجة المسكينة؟

وردت بسخرية.. وهل اتفقنا حقًا؟ وقت الجد أنا سراب.. لا يوجد هند هنا.. هند مسكينة مغدورة مغلوبة على أمرها فقدت زوجها الخسيس في فراش رجل وستحضر في الصباح لتكتشف الفاجعة..

اللعينة مخادعة ذكية ولا حدود لذكائها وللأسف لا يستطيع مقاومتها.. لكنها هند الآن وليست سراب وستكون شريكته في كل خطوة حتى لو اضطر لتصويرها..

أمرها بصرامة..

– انزعي عنكِ هذا الشعر المستعار والعدسات اللاصقة لم أعد أطيق رؤيتكِ بهما.. أريد سمرائي الجميلة...

فورًا مدت يدها لتنزع عنها شعرها الأشقر المستعار وعدساتها اللاصقة الزيتونية...

– لم أندم أبدًا على السعر الخرافي الذي دفعته فيهما.. الغبي كان يعتقد نفسه خبيرًا ولم يفرقهما أبدًا عن الطبيعي.. من العار أن اضطر للتخلص من شيء بهذا الكمال..

تناولهما منها بعنف وقال بتهديد...

– ستتخلصين من أشياء كثيرة جميلتي.. لا تنسي ذلك... الوقت يداهمنا يجب أن نتخلص من سعيد الآن... هل أنتِ بحاجة إلى إعادة المشهد؟ لن نلتقي كثيرًا بعد الآن... على الأقل حتى يحكم على عاشقكِ الولهان..

بصقت مجددًا على ياسر بقرف..

– لا تسميه عاشقي أبدًا.. أنا أكرهه بكل خلية من خلايا جسدي.. وأخيرًا حققت انتقامي لكل من أساء إلي.. بداية من الحيوان المسمى بأبي وحتى هذا الحقير الذي تسبب بمقتل شقيقي فواز وحرماني منه مرورًا بالشيطان الذي كرهت كل لحظة قضيتها في جحيمه..

– صدقيني سعيد سيدفع الثمن الآن يا هند.. ثمن خطف خطيبتي وإذلالي لسنوات.. بسببه فصلت من عملي في الشرطة... سيدفع ثمن قتله لفواز وثمن معاملتكِ كالحيوانات لسنوات...

فور مغادرة هشام لإحضار سعيد أغمضت هند عينيها واسترجعت الذكريات المريرة... بعدما أوقفت الحيوان (فتوح القطان) والدها المغتصب اللعين عند حده تواصلت مع فواز شقيقها الهارب من جحيم منزلهم.. من العار وصفه بالحيوان فحتى الحيوانات تتبرأ من فعلته..

لم تتجرأ على إخبار شقيقها عما حدث.. فواز كان أنظف رجل قابلته في حياتها.. مستنقع حياتها ضم أقذر الرجال وحثالتهم لكن فواز كان مختلفًا.. نبتة قلبها أبيض غرزت في الوحل.. كان يشق طريقه بصعوبة في عالم الأعمال وعندما باعها فتوح لسعيد الجبالي وبدأ في تكملة سلسلة قهرها وانتهاكها لم تجد غيره لتلجأ إليه.. وقتها انهارت وباحت له بكل الانتهاكات التي كانت تحدث لها من والدهما الحقير ثم الخنزير الشاذ زوجها.. فواز شجعها على تكملة دراستها والتحقت بكلية الآداب قسم علم النفس ومنها انطلقت وبدأت في دراسة النفس البشرية في أكبر المعاهد العالمية في الولايات المتحدة وكان يرافقها ظاهريًا كزوج حنون.. فسعيد في العلن كان يجزل لها العطاء.. كان يريد أن يلمع غطائه ويثبت للجميع عدم انحراف ميوله الجنسية وميله للرجال أكثر من النساء.. وحتى نسائه لم يكن يعاشرهن إلا بالشذوذ أيضًا.. لعنة الله عليه في الارض وفي السماء وسود الله وجهه الخنزير الشاذ عديم الدين والأخلاق.. وياسر ذنبه الأعظم أنه تحالف مع الشيطان وتسبب في مقتل فواز.. لسنوات خططت للانتقام منه واختيارها لعلم النفس ساعدها.. من بعد وفاة فواز ركزت جهودها لدراسة شخصية ياسر وجمع كل المعلومات عنه..

درست كل تحركاته بشكل جيد لسنوات.. فالغبي ياسر لم يكن يعلم أن حبيبته سراب تقطن في الفيلا التي أمام بنايته مباشرة وزوجة صاحب المجمع السكني الراقي الذي باع ضميره ليمتلك بعض الأحجار فيه... فواز أغوى شقيقة سعيد لأجلها.. العين بالعين ولكن للأسف اكتشف أنه يحبها فعلًا وأن الشيطان قد يكون له شقيقة كالملاك ولم تحتمل غدر فواز وانتحرت فورًا لتتركه يعاني المرار ولذلك لجأ إلى ياسر الذي وهبه راحة فورية من ألمه وسلم اعترافه إلى سعيد الذي

كان يشك أن فواز متورطًا في انتحار شقيقته، فتوح كان رأس الأفعى وسبب الشرور التي لحقت بهم جميعًا...أما هشام فمجرد ذيل.. رجل آخر استخدمته لتنفيذ مآربها وحينما ينتهي دوره ستتخلص منه بكل سهولة.. هو يعتقد أنها تحبه وتحالف معها للانتقام من سعيد الذي دمر مستقبله وأغرى خطيبته بالأموال فتركته ببساطة مدهشة وألقت بنفسها تحت قدمي سعيد الذي سحقها بجبروته ثم تخلص منها كقمامة نتنة والسبب كان رغبته الشديدة في هشام كعشيق له..

وحينما عرض سعيد على هشام العمل كحارس خاص له بعد فضيحة الرشوة له إمعانًا في اذلاله وليكون تحت عينيه ليمارس عليه المزيد من الضغط ليوافق على الفجور معه وافق هشام وهو يخطط للانتقام وسعيد لم يكن يعرف أنه كان يحفر قبره بنفسه... الطيور على أشكالها تقع..

أفاقت من شرودها على هشام وهو يجر جسد سعيد العاري تمامًا والمقيد بالحبال على الأرض كذبيحة.. ثم ألقاه بعنف على الفراش بجوار ياسر.. نظرات الفزع على وجه سعيد أنبأتها أنه يعلم مصيره.... علم أنه وقت الحساب.. وعندما نزع هشام كمامة فمه هتف بذل..

– الرحمة..

«الشياطين تطلب الرحمة من شياطين مثلها».. لذلك ضحك بسخرية صفراء وهو يقول..

– أنت تطلب الرحمة.. انظر جيدًا حولك يا خنزير.. هذه الغرفة تحتوي على بعض ضحاياك فقط.. تذكر ما فعلته لي أو ما فعلته لهند أو لفواز... لن أنسى مطلقًا أنه بسببك فصلت من عملي بسبب تهمة

الرشوة.. الآن أنت عارٍ ومستعد هل تريدني؟ سأخلع كل ملابسي الآن لكن لأنام مع زوجتك فوق جثتك..

أحنى سعيد رأسه..

– تنتقم الآن؟ لكنك تنسى ماضيك القذر.. أنت كنت طماع ولم تقبل بالمليون التي أعطيتها لك في مقابل طمس الأدلة بعد مقتل فواز وابتززتني لأدفع المزيد.. وزميلك قبل بنصف ما تريد في مقابل فضحك.. أنت كنت تزرع الشوك أينما حللت فجنيت ما تستحق.. وخطيبتك كانت أسهل ما يكون وقبلت بمبلغ زهيد مقابل جسدها وهي تعلم ما أريده تمامًا وتعلم أيضًا أني كنت أريدك أنت والمليون كانت ستصبح أضعاف لو وافقت على ما طلبته منك لا من أجل طمس الأدلة.. الكل كان راضيًا.. أنت فقط جنيت ما زرعته من شوك..

«تلك الخائنة اللعينة»...

– ذكرها الآن يغريني بإلقائك لأسودك الضارية سأتشفى فيك عندما يلتهمونك حيًا... ستكون في محل طرائدك وستشعر بما كانوا يشعرون...

«كل خطتها ستتدمر».. صرخت بانهيار..

– هذا يكفي... اخرسا كلاكما وأنت يا هشام خلصنا من هذا الخنزير.. أنا اكتفيت من صوته ومن رؤيته.. قدمه قربانًا للشيطان الآن ودعنا نتقرب منه بدمائه..

مع جملتها التقط هشام قفازات مطاطية سوداء وبدأ في ارتدائها فصرخ سعيد برعب وحاول التملص من قيوده وبكل برود قبض هشام على زجاجة الفودكا من عنقها بكفه التي أصبحت مغطاة تمامًا

بالقفازات وهشمها على الجدار الخلفي للفراش لتسيل على البشكير الذي كان يرتديه ياسر ثم غرز نصفها الحاد في حنجرة سعيد الذي جحظت عيناه وتدفق الدم من شريانه المقطوع.. حشرجة الموت لها صوت مميز قاسٍ ومخيف لكن يطربهما وأنهار الدم لونت الفراش باللون الأحمر القاني بلون الخطيئة المحبب لهما... نهر الدم يشبع شهوة القتل..

الطبيعة البشرية تتفاوت وردود الفعل أيضًا تتفاوت.. مشهد القتل قد يسبب الكوابيس للبعض لشهور وقد يجعل البعض ينتشي من الإثارة.. الإنسان يميل إلى الخطيئة بطبعه.. وعندما يتملكه الشيطان يصبح أكثر شرًا من الشيطان نفسه..

لو الإنسان مسيرًا حقًا إذًا فلماذا يوجد الثواب والعقاب.. الجنة والنار.. لا هو مخير بالتأكيد ومن يختار سكة الشر لتناسب مزاجه الأسود يعبر فقط عن دواخله وطينته الفاسدة..

وبكل نشوة ومتعة غطست هند كفها في نهر الدماء المتدفق ورفعت إصبعها إلى فمها لتتذوق دمائه.. أغمضت عينيها لتستمتع بمذاقه ونشوته الفريدة.. ومنظرها المنتشي أثار هشام لأقصى درجة.. لكن الحذر واجب، بهدوء خلع قفازيه ووضعهما في حقيبة جلدية سوداء والتي سبق ووضع بها شعرها المستعار وعدساتها اللاصقة ثم خلع جميع ملابسه وحتى حذائه وألقاهم بحرص بداخل نفس الحقيبة ثم جذب هند بعنف لتقف على قدميها.. ألصقها إليه وأحاط بها من الخلف..

أشار إلى المنظر الدموي أمامها والذي صنعه بفن وسألها بفخر..

– ما رأيكِ جميلتي؟

زفرتها الملتهبة عبرت عن نشوتها.. منظر ياسر الذي غرق في دماء سعيد كان أروع منظر شاهدته في حياتها...استدارت إليه وقالت بدلال..

– أحسنت يا هشام.. أحسنت وتستحق المكافأة..

ألصقها إليه أكثر وعينيه تشتعل بالإثارة...

– إذًا فلنبدأ احتفالنا الخاص...

الطمع والشهوة المحرمة أكبر خطيئتان على وجه الأرض.. شياطين الأرض قد تكون أشد خطورة من شياطين الجان... شيطانان يرقصان رقصتهما المحرمة فوق جثة ضحيتهما...

رقصة الموت وعلاقة في الحرام، علاقتهما المحرمة وممارستهما الجنس الآن بالذات وثقت مدى ما قد يصل إليه بعض البشر من شرور.. لم تعد أجنحة الملائكة ترفرف في المكان فالملائكة لا تجتمع مع النجاسة ولا من الأساس تدخل بل كانت أنفاس الشياطين الخبيثة هي من تعبق الجو..

***

البلل تسرب إليه.. وشعر بشيء بارد يغمره.. عقله لم يصفى تمامًا لكنه يقاوم للتركيز... حاول المقاومة وفتح عينيه بصعوبة...كان يريد النهوض ومغادرة المكان ليتخلص من ذلك البلل الذي لا يعرف مصدره ولكن الأهم ليتخلص من تلك الرائحة المزعجة التي تسبب له الغثيان... رائحة أقرب إلى رائحة الدماء.. ذكر الدماء نبه عقله وزاد من غثيانه وصداعه الرهيب يجبره على التقيؤ.. غلبه القيء فمال بجسده يبحث عن فراغ يستخدمه..

كل شيء مهزوز ومتراقص عقله شبه مغيب لكنه كان أكيدًا من وجود شيء خاطئ يحيط به.. أخيرًا أستطاع فتح عينيه...الأحداث والذكريات تزاحمت للعودة إلى رأسه.. إنها نفس غرفة الفندق الفاخرة التي حجزها لقضاء العطلة فيها مع سراب... كل شيء كان على حاله كما يتذكره باستثناء اختفاء سراب ليحل محلها جثة هامدة في فراشه وصرخات مرتعبة تهز الجدران..

***

# 8 | كالسراب

«طاردت السراب وأنا أعرف مصيري واستسلمت لشهوة ترضيني.. سبحت في بحر الخطيئة غير نادم والآن سأسدد عن كل ذنوبي فاتورة ضخمة أكبر من أي إثم ارتكبته عامدًا أو حتى غير متعمد لكنه العقاب الأمثل الذي استحق ليطهرني من كل آثامي وشروري».

«البر لا يبلى، والذنب لا يُنسى، والديان لا يموت، فكن كما شئت، فكما تدين تدان» يظل الإنسان يؤجل توبته واستقامته ظنًا منه أنه لديه كل الوقت ليفعل لاحقًا ولكن بعض الناس لا يمهلهم القدر الوقت لذلك...

إذا نويت التوبة فنفذ فورًا فلربما غدًا تستيقظ وبجوارك جثة هامدة تلون بدمائها ثيابك وجريمة تحمل إمضائك...

وأن تستيقظ لتجد زوجة مرتعبة تصرخ بانهيار وتتهمك بقتل زوجها وتصور بهاتفها النقال مسرح الجريمة تجربة مثيرة ربما تفوق تناول (الفودو) ذلك المخدر الرهيب نفسه..

لكن لحظات.. إنه يعرف القتيل.. القتيل العاري إلى جواره والمقيد بالحبال هو سعيد الجبالي مالك مجمعه السكني لكن ماذا أتى به إلى غرفة الكازابلانكا.. والسيدة المرتعبة التي تصيح وتبكي وتقول زوجي

بعد تدقيق النظر إلى وجهها يعتقد أنها تشبه سرابه... لا يدري من أين اكتسب كل تلك البلادة التي تجعله يراقب ما يحدث بصمت ليفهم ما حدث تدريجيًا..

عجيب ذلك الثبات الذي ينتابه الآن على الرغم من أنه أبعد ما يكون عن شخصيته الحقيقية..

عدَل من وضعه جيدًا ليظهر في كامل أناقته في الفيديو الذي تصوره له السيدة الغامضة ومرافقها موظف الاستقبال... ابتسم بشموخ وهو يغلق بشكيره جيدًا.. فرصة نادرة سيغتنمها فهل سيصور له فيديو كل يوم وبجواره جثة وهو قاتلها.. بدأ الضحك في هستيرية.. نهايته توضحت..

في النهاية ستكتب عنه الجرائد لا كالطبيب المشهور ياسر ممدوح ربيع الذي ذاع صيته لكن كالقاتل ياسر الذي قتل شريكه في الفراش...

قاتل وشاذ وسادي يتمتع بالجنس مع الرجال المقيدين بالحبال... لقد حبكتها سراب ووقع هو فيها بكل بساطة كالغر الساذج.. ضحكاته تواصلت..

من يستطيع مقاومة النداهة التي تناديه لهلاكه؟!

***

كان يشعر بالتبلد الشديد وكأن ما يحدث لا يعنيه البتة.. راقب امتلاء الغرفة برجال البحث الجنائي الذين وصلوا في سرعة قياسية.. من قال إن الشرطة في مصر آخر من يأتي؟ حوالي نصف ساعة فقط مرت وقضاها متخشب حتى انتشر جيش النمل يجمع الأدلة.. ابتسم للكاميرات التي تصوره وهو غارقٌ في دماء القتيل.. رجال الطب

الشرعي كانوا نشطين تمامًا.. لن ترى وزيرًا قتيلًا كل يوم وبشكل مخزي كسعيد... الجميع سيجتهد لإتمام عمله على أكمل وجه.. (لإدانته)..

كل الأدلة تدينه دراسته للطب الشرعي لم تذهب هباءً...

بصماته على زجاجة الفودكا المهشمة والتي يزين عنقها المبتور بحدة عنق سعيد كأنه بابيون أنيق ودماء سعيد تغطي بشكيره ووجودهما عاريان في الفراش.. صلته بسعيد كمالك للمجمع السكني الذي باعه وحداته بسعر بخس وتسهيلات لم يمنحها لسواه.. ثم تلك الشبيهة بسراب التي التقطت له الصور عندما دلفت إلى الغرفة برفقة موظف الاستقبال... كلها أدله تدينه وتلصق به التهمة.. أيًا من فعلها فقد فعلها ببراعة وجبت لها التهنئة.. لقد لبسها تمامًا وأيامه كطبيب مشهور ولت بلا رجعة.. وعلم مصيره «قاتل ومتلبس بجريمته» لذلك ابتسم ببلاهة حينما أخبره الضابط المرافق للقوة التي تفحص الغرفة أنه موقوف بتهمة قتل الوزير سعيد الجبالي...

***

{وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ ۗ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ}.

«لماذا قتلته؟ لماذا قتلته؟ لماذا قتلته؟»

ألم يتكرر ذلك السؤال المقيت بصورة كبيرة في الفترة الأخيرة...

هو أراد الاستسلام لمصيره فلربما ما يحدث له هو الجزاء العادل لكن دموع والدته أعطته الدفعة وأعطته الحافز.. «ألم تدعي لي يا أمي أن يبعد الله عني أولاد الحرام؟» لكن من الواضح أن ذنوبي وآثامي

كانت أكبر بكثير من دعواتكِ... أنا استحق ما حدث لي تمامًا.. «اللهم توبة» أنا أعلم أن الله سيتقبل وسأحظى بالآخرة لكن مصيري الدنيوي تحدد منذ اليوم الذي دخلت فيه سراب إلى حياتي..

«سرابًا غيم أوقاتي وسود بجمالها حياتي ودفعت على يديها ثمنًا أكبر من خطاياي وهفواتي».

– لم أقتله...

نظر إليه وكيل النيابة الشاب بتمعن..

– أما زلت مصرًا على الإنكار؟ الإنكار لن يفيدك.. الأدلة كلها ضدك.. أنت ضبطت في حالة تلبس.. رفع ياسر رأسه بضيق..

– أنا أعلم جيدًا ما تقوله وأعي خطورة موقفي.. إن اخترت الطريق السهل فاكتفي بما لديك واغلق القضية وإن أردت إراحة ضميرك فتحرى جيدًا واستمع إلي.. أنا لم أقتله..

«كم أحب عملي كوكيل نيابة... منذ أن التحقت بالعمل وأنا فخور بالقضايا التي استطعت الفصل فيها وإلزام المباحث بعمل واجبها على أكمل وجه.. لم أقتنع يومًا بالظاهر لكن قضيتك مختلفة.. الإدانة المتكاملة»..

الحبكة غير معقولة.. لا توجد غلطة وهذا يجعله يشك.. الأدلة تدين المتهم لكنه يصدق براءته من تهمة القتل.. سيعطيه كل الوقت وكل الفرص لإثبات كلامه.. قد يكون زانيًا لكنه ليس قاتلًا لكن الشك وحده لن يكشف الحقيقة كاملة يجب أن يجد دليلًا ملموسًا...

واسترجع حديثه مع التمرجي مرزوق..

– الدكتور لم يقتله.. هو حتى لا يستطيع ذبح دجاجة فما بالك بشخص..

– أنت فقط من يؤيد رواية الطبيب بخصوص السيدة سراب.. هل يمكنك إثبات ذلك؟

ونكس مرزوق رأسه..

– ألا تكفي شهادتي؟

– لا للأسف يا مرزوق شهادتك غير معترف بها سيطعن فيها أصغر محامي في مكتب المحاماة الذي يتولى القضية..

– لكنها الحقيقة.. هناك شيطانة خططت لكل شيء وورطت الدكتور في القتل..

– أثبت لي هذا عمليًا لا بمجرد الكلام. أجبني مباشرة هل كان سعيد الجبالي يتردد على العيادة أو على منزل الدكتور ياسر؟

– مطلقًا.. ومع أنه مالك الكمبوند إلا أني لم أعرف كيف كان يبدو إلا عن طريق التلفاز.. الدكتور ياسر خطاياه عديدة لكن ليس من ضمنها القتل.. من أحيا روحًا مرة لن يعود ويزهق غيرها مرة أخرى..

صمت قليلًا يراقبه بتمعن ثم قال..

– لن أستحق شهرتي كحاتم شكري وكيل النيابة الحاذق الذي أنصف المظلومين إن لم أفك غموض قضيتك يا دكتور لكن لو فقط اعطيتني شيئًا حقيقيًا أبدأ منه.. هناك شيء مريب يجعلني أشعر بعدم الراحة..

وهتف ياسر بلهفة..

– إذًا أنت تصدق أنني لم أقتله؟ هناك مكيدة دبرت لي..

عدم وجود غلطة في حبكة الإدانة هي نفسها ما تثير ريبته وتستثير حدسه شديد الدقة.. صمت قليلًا ثم قال أخيرًا بحيرة واضحة..

– فيفتي فيفتي دكتور، وهذه نسبة تجعلني أعيد كل حساباتي.. صدقني أنا أرغب بمساعدتك لكن لا دليل واحد يدعم ما تقوله.. لأيام وأنا أحاول إيجاد أي طرف خيط.. قصتك غير منطقية ولا يدعمها سوى شهادة مرزوق معك بتردد سيدة شقراء على عيادتك... أولًا.. راجعنا كل كاميرات المراقبة على بوابات المجمع السكني حيث تعيش وتعمل.. الكاميرات لم تسجل دخول أي سيدة شقراء انطبقت عليها مواصفات سرابك وخصوصًا قبل الحادث بيومين إلى مجمعك السكني على الإطلاق أبدًا ولا توجد بصمة واحدة في العيادة ولا في سيارتك للسيدة التي تدعي أنها سراب أو زوجة القتيل في الحقيقة بل وعند تفتيش عيادتك وجدنا نوعًا مميزًا من الحشيش في أدراج مكتبك الخاص...

ثانيًا.. السيدة التي تدعي أنها تسمى سراب ليست شقراء بالمرة بل سمراء جدًا وعينيها بنيتين بلون عادى ودارج كلون معظم المصريين وليستا خضراوين وتكون في الواقع زوجة القتيل سيادة الوزير سعيد الجبالي.. السيدة هند القطان والتي أنكرت تمامًا معرفتها بك... ثالثًا وهذا هو الأهم هي لم تغادر القاهرة سوى صباح الجمعة.. وكاميرات المراقبة في فيلتهم في القاهرة تثبت ذلك وتم تسجيل مخالفة مرورية بسيارتها التي غادرت بها القاهرة بالقرب من طريق المزرعة بعد وقت مغادرتها للفيلا بساعة.. رابعًا لا يوجد إطلاقا أي فندق مسمى بالكازابلانكا والكازبلانكا التي تم إلقاء القبض عليك فيها هي المزرعة

الخاصة بالمجني عليه... خامسًا بعد مراجعة تعاقدك مع الشركة المالكة للمجمع السكني تبين أنك لم تسدد الثمن الحقيقي للوحدة بالكامل وتم عمل تخفيض كبير للدوبلكس خاصتك وللعيادة أيضًا وطرق سداد خاصة لم تطبق على أي من ملاك الوحدات الآخرين وأنت الوحيد الذي سُمح له بفتح عيادة في كل المجمع مخالفًا بهذا لكل القواعد التي وضعها سعيد نفسه وبالطبع سيكون هذا ليجعلك قريبًا منه في كل وقت وتم إدراج عقدك تحت بند (تعاقد خاص بسعيد الجبالي شخصيًا) ونظرًا لسمعة المجني عليه والطريقة التي تم ضبطك بها فسيكون ذلك التعاقد الخاص هو ثمن علاقتكما أما سادسًا فالشق الخاص بالتلبس موجود.. بصماتك على الزجاجة التي قتل بها ولا يوجد سوي بصماتك وبصماته عليها... دماء القتيل تغرق بشكيرك.. وجودكما عاريان في الفراش..

سابعًا الشهود.. نينا الخادمة شهدت أنها قدمت لكما الطعام أنت وسعيد في الشرفة وكلامها مدعومًا بكاميرا المراقبة التي أظهرتك واضحًا وأنت تأكل باستمتاع مع أحدهم لم يظهر في الشريط من تلك الزاوية التي وضعت بها الكاميرا، وبصماتك على طقم الطعام كاملًا ثم سمير الخادم أقر بأنك أعطيته بقشيشًا ضخمًا وهو يرفع حقيبتك لغرفة سعيد وسلم النقود للبحث الجنائي وتم رفع بصماتك من عليها..

وأغمض عينيه بغضب، اللعينة كانت تخطط لكل شيء بحرفية.. حتى مكان جلوسه لتناول الطعام اختارته هي وكل خطواته كانت محسوبة من قبلها ليظهر هو فقط في كاميرات المراقبة وبالتالي يكون جليسه هو سعيد الجبالي.. «عشيقه»..

واعترف بأسف..

– كنت أتبع خطواتها بلا تفكير.. كنت مغيبًا بحبها لكن لو لم تتحرى جيدًا ستكون أنت أيضًا شريكًا في الجريمة وستكون مسؤولًا عن كون الخاطئين الحقيقيين أحرارًا ينعمون..

– عبثها بأفكارك وسيطرتها عليك لتنفيذ خطوات معينة تخدم حبكتها أشياء أتفهمها جيدًا فلو صدقت وكانت مكيدة فكل شيء سيكون مدبرًا بالمسطرة والقانون لا يحمي المغفلين.. أنت اتبعت شهواتك ولغيت عقلك والآن تحاول استخدام عقلك الذي لغيته من قبل لكن بعد فوات الأوان فهل تلومنا نحن على ما أصابك وتتهمنا بالتقصير أمام قضية منتهية بالتلبس الكامل؟

«فَخَلَفَ مِن بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ ۖ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا».. وأكمل..

– اتباعك لشهواتك لغى عقلك وجعلك تتلبس الجريمة بالكامل.. بصماتك على أداة الجريمة وشهود وكاميرات مراقبة يشهدون على حضورك الطوعي وثمن موثق في الأوراق الرسمية لعلاقته الشاذة معك.. ثالوث مرعب يكفي لإدانة أي شخص.. من أول جلسة في المحكمة سيحكم عليك القاضي ولن يسألك عن سبب قتله فهذا لن يفرق في الحكم فربما اختلفتما على الوضعية لذلك قتلته وأنت تحت الشراب.. ثم هناك الفيديو الذي التقطته زوجة المجني عليه لكما في الفراش وإن كان لن يعتد به في أي محكمة لأنه تم بدون إذن مسبق من النيابة إلا أنه يثبت تورطك أمام الرأي العام وستقوم بتسريبه للصحافة بالطبع.. تخيل الحشد الشعبي الذي ستشنه وسائل التواصل الاجتماعي عليك حينما يعلمون عن شذوذك.. وابتسم بسخرية (شعبنا متدين بطبعه)..

أعني من يستغل الحدث ليصنع زوبعة تخدم أغراضه بالطبع..

سأله بضعف..

– ألم تتساءل عن سبب وجود مثل هذا الفيديو؟

أجابه بثقة..

– بالطبع سئلت وإجابتها منطقية... على حسب أقوالها إنها حينما شاهدت سيارتك أمام القصر علمت أن زوجها لديه صحبة..

هي كانت قد اكتفت من نجاسته وقررت تصويره لمساومته وطلب الطلاق وإلا ستفضحه بذلك التصوير لذلك اقتحمت الغرفة وهي تصور ومعها شاهد على أقوالها.. هشام الحارس الخاص بسعيد الجبالي...

عند ذكر هشام ضحك بمرارة ليردد..

– ذلك سيكون غريب بالطبع.. المجند المنتهك جنسيًا وموظف الاستقبال الغير ودود في ثمثيليتهما القذرة..

وبالطبع تجاهل حاتم حديثه عن غريب.. لعاشر مرة وهما يعيدان نفس الحوار.. لكنه أكمل يشرح..

– سعيد الجبالي شخصية لها سلطتها ونفوذه جبار وحينما يرغب بخصوصيته ينالها.. هشام قال في أقواله إن المجني عليه استقبلك كضيف عصر الخميس ولم يشاهدك من بعدها بناء على أوامر سعيد الذي أمره بعدم مقاطعتكما وأنه في الصباح التالي تعاطف مع دموع السيدة هند وقبل مرافقتها لغرفة زوجها.. أخبرنا عن علاقاته الشاذة والتي فاحت رائحتها وأن السيدة انهارت حينما علمت أنه لم يتخلص من عشيقه قبل قدومها وكأنه يزيد في إذلالها فقررت تصويره.. ثم لماذا

ستلجأ السيدة إلى طبيب نفسي وهي تدير أكبر مركز للعلاج السلوكي في الشرق الأوسط؟ السيدة هند القطان اسم على مسمى كمعالجة نفسية مشهورة وخبيرة في الاستشارات الزوجية..

رعونته وقذارته أوصلتاه إلى الدمار التام.. خفض رأسه بانهيار فلم يعد هناك المزيد ليضيفه... المجرمة أحكمت حلقاتها حول عنقه لتخنقه في مصيدتها ولا تترك له أي مفر.. وتلك الهند أنكرت معرفته تمامًا وكانت صادقة في كذبها لدرجة اليقين حقًا.. وهو أيضًا لم يتعرف عليها في هيئتها الجديدة سمراء بشعر قصير كشعر الرجال وترتدي النظارات الطبية البشعة.. لقد استخدمت كل خبرتها في علم النفس للسيطرة عليه وإخضاعه، كان كعروس الماريونيت التي تحركها كما تشاء.. هند القطان اسمًا ليس غريبًا عليه.. هل لسمعة مركز القطان المشهورة أم هل من الممكن أن تكون شقيقة فواز القطان؟

الذكاء يكسب وهو كان غبيًا واستحق أن يوصم بالعار للأبد.. سأل حاتم بيأس..

– ألا تعتقد أن الأدلة محبوكة أكثر من اللازم..

ثم التبلد الذي أصابني وقت الضبط.. أنا استنتجت شيئًا.. ربما تم خلط عقار ما في الشراب.. وبحسب خبرتي حبوب الأتيفان ستكون الأقرب..

لو لم تحقق الآن في كل أقوالي ستكون شريكًا في ظلمي بتراخيك..

الشك كان بداخله يتزايد منذ اللحظة الأولى لذلك وعد بالبحث.. وعد مع أنه لم يكن أبدًا متراخيًا أو مسيسًا أو بعدة ذمم لكنه وعد بفعل المستحيل من أجل كشف الحقيقة وفقط الحقيقة مع أنه اجتهد بالفعل لكن لا ضير من الاجتهاد أكثر في سبيل إعلاء كلمة الحق..

وعاد بذاكرته ليوم من فترة قريبة اقتحمت فيه مكتبه فتاة عصبية تبكي وتتهمه بالظلم..

– أنت ظالم.. ياسر بريء..

ولحقها الحارس وهو يقول بخوف..

– عذرًا سيدي سأصلح الأمر وحاول الاقتراب منها ليجذبها خارجًا لكنه صرخ بصوت جهوري..

– توقف فورًا ولا تلمسها.. اخرج واحضر لها كوبًا من الليمون البارد..

وصرخت هي الأخرى بعصبية..

– ألن تأمر بحبسي وإلقائي في الحبس؟

– ولماذا ما تهمتكِ؟

وهوت جالسة على أقرب مقعد وغمغمت..

– لا تحاول إقناعي بمثاليتك.. جميعكم مستبدون ظالمون.. وهل تحتاج تهمة لسجني حقًا؟ فقط اعطيهم أمرًا ولن يُعرف لي طريق من بعدها..

ودخل الحارس وهو ينظر إليها بغضب ووضع كوب الليمون أمامها..

– اشربي الليمون فربما تستطيعين الكلام بطريقة أفضل..

وهدأت حقًا.. كانت تتوقع أن يلقيها في الحبس لكنها لم تستطع منع نفسها مع هذا.. لكنه يجعلها تشعر بالحرج الشديد من هدوئه ومن ضبطه لأعصابه خاصة حينما تغاضي عن صفاقتها وتحدث بجدية..

– قضية شقيقكِ غاية في الصعوبة والتعقيد تلبس تام..

– لكنه بريء.. ألا تشعر بهذا؟

– شعوري لا يمثل أي أهمية.. نحن نستند إلى الدلائل والبراهين فقط لا مجال لمشاعرنا الشخصية..

وهتفت بيأس..

– لكنك في مركز القوى وتستطيع فعل الكثير..

– أنتِ مقتنعة ببراءته أليس كذلك؟

– تمامًا..

– إجابتكِ كانت سريعة دون تفكير أو تلعثم وهذا يدل على اقتناعكِ التام بها إذًا فلماذا لا تشهدي معه؟ فلتخبري النيابة بأنكِ كنتِ هناك وياسر لم يقتله..

وبهتت بشدة..

– أرأيتِ على الرغم من قناعتكِ التامة ببراءته لكن لا تستطيعي فعل شيء أمام الأدلة والبراهين وأمام الحقيقة الظاهرة وهذا موقفي تمامًا لا يهم ما أعتقده لكن وعدي الوحيد لكِ لن أترك كلمة تمر دون تمحيص حتى تتحقق العدالة كاملة..

لدقائق ظل حاتم صامتًا وأخذ يطرق سطح مكتبه بقبضته برفق.. حقًا الأدلة محبوكة بصورة مثيرة للدهشة وتدل على أن من خطط لها غاية في الذكاء والخبرة إن كانت الجريمة ملفقة له فعلًا لكن ماذا سيخبره؟ القضية تتحول لقضية رأي عام ووجب السرعة والإنجاز..

القتيل وزير في الحكومة ووفاته كانت مشينة.. هو بالفعل يعتقد أن ياسر بريء والأدلة بالفعل محبوكة كما يقول الكتاب لكن كرجل قانون لا يمكن أبدًا أن يعتمد فقط على حدسه..

سعيد كان شيطانًا رجيمًا.. البقايا العظمية التي وجدت في أقفاص الأسود تعود للعديد من البشر.. وبالفعل الجريمة الكاملة تمت.. من خطط لها لم يترك ثغرة..

عندما يكون العقل المدبر مزيج من خبيرة علم نفس وضابط قذر فالناتج بالتالي سيكون الجريمة الكاملة لكن أين الدليل؟

أخيرًا أجابه..

– أنا أقر بأن الوضع مثالي.. لكن أنت تأخرت في اقتراح فحصك لمخدر ما.. وحتى وإن تم اكتشاف ذلك فقد تكون تعاطيته بإرادتك لا يوجد أي مخرج لورطتك الجريمة تمت ببراعة.. سأسألك مجددًا.. لماذا لم يكن لسراب ملفًا كباقي مرضاك؟ أنت لم تدون عنها أي معلومة ولم تسجل في كشوفات المرضى ولم يشاهدها أي أحد في العيادة باستثناء مرزوق الذي حاول المستحيل لتبرئتك لكن شهادته لا يعتد بها نظرًا لماضيه..

في مجتمعنا المهيب سيظل الإنسان يوصم بماضيه مهما إن تاب واستقام.. ماضي مرزوق يطارده على الرغم من أنه الآن من أقرب القلوب إلى الله وأتقاها..

– لأنها أرادت الخصوصية الكاملة... وفي قانون العيادات الخاصة وخصوصًا النفسية العميل دائمًا على حق.. كانت تزور العيادة للراحة لا للتحقيق عن اسمها وهويتها الحقيقية... إن أرادت إخفائهما فلا يحق لي إجبارها.. لكن هناك دليل... احتمالية كونها شقيقة فواز

القطان ليس دليلًا بالنسبة لك على أنها استخدمتني؟ أو حتى وجود لوحة السيدة العجوز والبقايا البشرية؟

– موقفك شديد التعقيد يا دكتور وأشك أن المحامي الخاص بك سيتمكن من مساعدتك.. علاقة هند الشائكة بسعيد الجبالي منحنى ملغم لكن في الواقع لا علاقة لها أبدًا بقضيتك.. واللوحة والبقايا العظمية تثبت تورط سعيد في كل الموبقات المهلكة واشتراكك معه فيها.. ومع ذلك أنا أمنحك المزيد من الوقت، أنا أستخدم سلطتي واستند للمادة 381 من قانون النيابات لإبقائك في الحبس الاحتياطي أقصى مدة أستطيع توفيرها لك.. واستصدرت أمرًا رسميًا بذلك من قاضي التحقيقات بذلك حرصًا على تحقيق العدالة... لكن في النهاية كما أخبرتك المجني عليه ليس شخصًا عاديًا.. وقتك يتناقص.. اعطني أي شيء حقيقيًا أستند عليه..

تنهد بألم ثم قال بيأس..

– والهياكل البشرية في أقفاص الأسود.. هل الأمر سيمر دون تحقيق؟

هز حاتم رأسه بأسف..

– سنحقق لكن هذا للأسف لا يفيدك بشيء.. إن كان سعيد مجرمًا عتيد الإجرام وقاتل و... و... و... إلا أنك ضُبطت متلبسًا في فراشه وبرغبتك.. لا يوجد أي دليل يدل على إجبار سعيد لك.. هل هدد بإلقائك إلى الأسود مثلًا؟

حاول مرة أخرى.. مازلت لم تفيدني أو تفيد نفسك بتقديم دليل ملموس..

طوال طريقه إلى محبسه وهو يسترجع كل ما حدث... الخيانة والزنا والتنازل عن كل المبادئ خطايا قد تصل إلى نفس درجة القتل.. هو ليس بريئًا كليًا أو مظلومًا.. لكن والدته تمزق قلبه.. واشقائه.. وشقيقته المسكينة سيوصمهم بعاره إلى الأبد.. أدرك الآن كم كان مقصرًا في حق نفسه بغمسها في الملذات والشهوات وفي حق عائلته بإبعادهم عنه... للأسف باستسلامه اشقائه الذين وجدهم أخيرًا سيوصمون بوصمته حتى ولو كان يستحق هذا.. لأجلهم فقط سيقاوم وسيحاول إثبات براءته مهما أن كلفه الأمر ومهما أن فقد الرغبة في الحياة ومهما شعر بأن هذا هو عقابه العادل..

كل ما يرغب به الآن هو سجدة طويلة تخلصه من كل ذنوبه وحضن والدته يطمئن قلبه.. كما أخبره المحامي عقوبته لن تصل إلى الإعدام لكنه سيقضي المتبقي من عمره خلف القضبان في جريمة هو بريء من معظمها... ربما قتل سعيد في رجولته حينما وافق أن يزني بزوجته لكنه لم يزهق روحه وهناك من فعلها ولابد وأن يدفع الثمن معه..

***

زنزانته القذرة تضيق عليه في كل لحظة يمضيها فيها.. حارب من أجل الترف لسنوات وحينما ناله لم يجد سوى قذارة تماثل قذارة حياته..

حمامه الفخم استبدل بدلو قذر في ركن من أركان الزنزانة.. يا للوضاعة.. أدنى درجات الذل أن تقضي حاجتك في دلو وفي نفس مكان نومك.. وفراشة الوثير استبدل بفرشة خشنة؛ قذرة رائحتها كرائحة الموت تخنقه، وتثير حالة الغثيان لديه كلما وضع رأسه عليها...

«كنت أسير بسرعة الصاروخ لأعتلي عرش الرفاهية والترف.. ملذات الحياة في كل صورها اختبرتها وغمست فيها حتى النخاع، لكن الصاروخ الذي اعتليته لم يكن يناسبني.. فغادر وتركني في الفضاء.. وفقط تبقيت أنا وخطيئتي.. واكتشفت أن هذا الصاروخ لم يكن يقلني إلى نجاحي ولكن إلى هلاكي وبخطوات واسعة من الخطيئة».

على الرغم من انتصاف شهر مارس إلا أن برودة الزنزانة الرهيبة تجعل أنفاسه تتجمد قبل أن تخرج من صدره والمعاملة الغير آدمية التي يلقاها ربما ستخفف من ذنوبه العديدة...

***

«ياسر ممدوح ربيع.. زيارة».

من سيزوره اليوم؟ والدته قدمت لرؤيته أمس على الرغم من اشتداد مرضها وهو يعلم أن الزيارات ممنوعة ولولا بكاء والدته ودموع شقيقته البريئة لما سمح وكيل النيابة الشهم لهما بالجلوس معه بعد انتهائه من التحقيق..

إذًا من سيزوره؟ كان سيرفض لكن فضوله غلبه عندما علم أن الزيارة لن تتم كالعادة عبر الأسلاك لكن ستكون في غرفة خاصة.. وعندما سأل عن هوية الزائر سخر منه الحارس وقال بتهكم واضح..

– مارلين مونرو..

يا للشيطان.. إنها سراب مجددًا أتت لتشمت فيه... شعرها الأشقر تبدل ليصبح أحمر بلون الرمان وعيناها أصبحتا بلون السماء الصافية وامتلأ وجهها بالنمش وتضخمت شفتاها بشكل ملحوظ... صهباء نارية أوروبية بامتياز.. خبيرة في التنكر وإبدال هيئتها.. يا ترى

ما شكلها الحقيقي؟ يشك أنها في حقيقتها تلك السمراء التي شاهدها في التحقيقات وخلال المواجهات التي تمت بينهما في النيابة.. سجلت نفسها في الأوراق الرسمية على أنها المحامية علياء سرور كمحامية مرسلة إليه من مكتب محاميه الشهير..

تعرف عليها فورًا دون أي صعوبة مع أنها لا تشبه أيًا من السرابين الأخريين بأي حال لكن نفس النظرة التي لن ينساها مهما عاش مازالت تطل من عينيها وعلم مغزاها الآن (الكراهية)..

كم هي بارعة ولها سلطة نافذة بل وجريئة لتحضر هكذا دون خوف من انكشاف شخصيتها أو ترك دليل كبصاماتها مثلًا لكنها كانت ترتدي القفازات الجلدية احتاطت لكل شيء لكنه أكيد من أنها تركت ثغرة ما وسيقضي الباقي من عمره في محاولة اكتشافها.. ونظر إليها ببرود عجيب لا يعلم كيف تمكن من الظهور به..

كانت تضحك بسخرية.. تريد أن تستفزه لكنه أقوى من ذلك.. وقبل أن يقول ما يريد قوله هتفت بسخرية أكبر..

– لا تحاول الاستفادة من وجودي أنا لا أحد ولم أحضر لرؤيتك ولم يشاهدني أحدهم سوى خيالك المريض يا مدمن الحشيش الجيد كما وصفوه في التحقيقات فلا تحاول استغلال تلك النقطة أنا لا أفعل أي شيء دون تفكير أو تخطيط.. أنت فقط الغبي هنا..

حقًا كان الغبي لكنه لم يعد والحمد لله..

إن كانت تلك الحقيرة تلاعبت به في البداية لكن الآن هو أقوى بإيمانه... بعودته إلى الله عز وجل.. لو كانت تعلم كم عشقها لبكت الدماء بدلًا من الدموع.. مستحيل أن يتكرر في حياتها ويحبها أحدهم

مثلما أحبها هو... ربما في النهاية الله يحبه على الرغم من كل أفعاله وجنبه مثل تلك الحية في فراشه..

السجن أفضل من تبعية تلك الحية.. وسيدفع ثمن خطاياه وسيكون سدد ما عليه بالكامل حينما يحين وقت لقائه مع خالقه..

لم يرتسم على وجهه سوي الجمود وهي تخبره بعصبية أنه يستحق ما حدث له تمامًا... لكنه ظل على صمته حتى وهي تزيد من استفزازه..

– أنا انتصرت وليتقبل الشيطان قرباني..

وضحك بسخرية على الرغم من وضعه..

– لكني لم أكن أنا هذا القربان مهما فعلتِ.. وأيضًا لم أشترك في مراسم عبادته.. عبادة الشيطان حكرًا عليكما لذلك فلتنعما بجحيمه بمفردكما أنتِ وغريبكِ القاتل من منكما قتله أنتِ أم هو؟ مهما طال الزمن لكن سيأتي يومًا وستنكشف كل الحقائق ووقتها الويل لكما من ريب المنون وفواجعه أما أنا فولدت من جديد.. التَّائِبُ مِنْ الذَّنْبِ كَمَنْ لَا ذَنْبَ لَهُ..

صرخت بعصبية..

– إياك أن تتجرأ وتعتقد أنك ستنعم بالمغفرة يومًا أو براحة البال، أنت قاتل مثلك مثل سعيد تمامًا.. سعيد قتل شقيقي بسببك واستحق ما حدث له.. هل تعلم؟

كان يتبجح بقتل فواز.. يخبرني أننا تساوينا هو قتل شقيقي وشقيقي قتل شقيقته.. لكنه لم يكن يعلم مع من يتعامل.. أما أنت ف نهايتكِ لائقة تمامًا.. وثقت في الأوراق الرسمية كقاتل ومثلي الجنس عشيق للرجال... هذا جزاء من يغدر بفواز...

أجابها ببرود يحسد عليه..

– ربما ما تقولينه صحيحًا.. أنا حقًا أستحق لكن لا أتخيل كيف سيكون عقابكِ أنتِ من الله عز وجل... على الأقل أنتِ أعطيتني الفرصة للتوبة وللعودة من الطريق الأسود الذي سلكته وربما سيغفر لي الله يومًا...

هل تعلمين أعتقد أن نهايتكِ ستكون في قفص الأسود يومًا ما لكن سيكون على أحدهم إقناعها بتناول لحمكِ العفن فهي أرقى من أن تأكل الجيفة...

صرختها بغل أنبأته أنه هو من نجح في استفزازها... من الآن فصاعدًا لن يسيطر عليه أي شخص ويجعله يفعل ما يريده..

ربما متأخرًا لكنه استفاق من غيبوبته وسيعود ياسر من جديد... بل سيكون ياسر جديدًا كليًا على استعداد لمقابلة خالقه..

عاد إلى زنزانته الحقيرة الباردة أشد إصرارًا على الخلاص...

هتف بصوتٍ عالٍ سمعه الحارس خلف الباب..

– أريد أوراقًا وأقلامًا..

إن كان السجن تكفيرًا للذنوب المادية إذًا فالكتابة ستكون خلاصًا للروح..

وللشر بقية

«والشر سيبقى بقاء الكون لكن لكل ظالم نهاية بإذن الله».